

وَلَفْ وَّوَعْنَر

# كَيْفَ تَعْمَلُ السِّيَاسَةُ



دَارُ الْحِكْمَةِ  
لِنَدْوَى

**كيف تعمل السياسة؟**

ربما تكون السياسة من الأمور المملّة أو من الأمور التي تدعو إلى الغضب ، لكنها هي التي تحدّد مسارنا وتقرّر مصيرنا ، فالسياسة هي الأسلوب الذي يجري اتباعه عند أخذ القرارات المتعلّقة بالشؤون والمشاكل العامة . هي التي توازن بين الحلول الممكنة وتفرض واحدا منها يكون ملزماً للجميع . لهذا السبب يكون عدم الاكتراث بالسياسة أمراً يفتقر إلى العقلانية . من يعلم كيف تعمل السياسة ، يستطيع أن يفهم السياسة بحدّ ذاتها وبالتالي يصبح قادراً على المشاركة في تحديد مسارها .

كان ولف فاغنر (١٩٤٤) حتى سنة ١٩٩١ أستاذاً محاضراً للعلوم السياسية في جامعة برلين الحرّة . يشغل فاغنر ، اليوم ، منصب أستاذ للعلوم الاجتماعية في جامعة إرفورت .

ولف ووغنر  
Wolf Wagner

ترجمة  
شفيق بساط

## كيف تعمل السياسة؟

لندن

دار الحكمة

# حقوق الطبع محفوظة

- كيف تعمل السياسة؟
- المؤلف: ولف ووغنر
- المترجم: شفيق بساط
- الطبعة: الأولى ٢٠٠٩
- الناشر: دار الحكمة - لندن

**ISBN 1 904923 59 3**

88 Chalton Street, London, NW1 1HJ  
Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116  
E-Mail: al\_hikma\_uk@yahoo.co.uk

**DAR ALHIKMA**  
Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116

E-Mail: al\_hikma\_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

## الفهرست

- المقدمة ..... ٩
- لماذا الاهتمام بالسياسة؟ ..... ٩
- طريقي إلى السياسة ..... ٩
- حكاية أمي وأبي ..... ١٢
- نتيجة ما حصل بالنسبة إليّ ..... ١٧

### الفصل الأول

- ملاك اسمه إبليس - أو: ما هو أفضل مجتمع؟ ..... ٢١
- عالم الملاك إبليس الأول: مجتمع خالص يتّصف بإنكار الذات ..... ٢٤
- أمثلة عن المجتمع الناصر للذات ..... ٢٦
- من سلبيات المجتمع ناكِر الذات ..... ٣٠
- نتيجة المجتمع القائم على نكران الذات ..... ٣٩
- العالم الثاني للملاك إبليس: المجتمع الأناني ..... ٤٠
- تركيبة مكونات المجتمع الأناني ..... ٤١
- من مساوئ المجتمع الأناني ..... ٤٢
- حساب مبدئي ..... ٤٦
- حدود المجتمع الأناني ..... ٤٧
- المجتمع المثالي: مزيد من المجتمع الناصر لذاته والمجتمع الأناني ..... ٤٩

## الفصل الثاني

- مليارات النماذج عن سيرة حياة كولومبوس - أو : العلاقة بين السياسة والحقيقة ..... ٥١
- صعوبات في مواجهة المستقبل ..... ٥٢
- حرية الإرادة ..... ٥٧
- النتائج غير المقصودة للتصرف الهادف ..... ٥٩
- السياسة وعدم اليقين ..... ٦١
- ما هي نسبة الحقيقة الممكنة في السياسة؟ ..... ٦٢
- الفكر البناء - الفرضيات في نماذج الواقعيات ..... ٦٣
- الحرية : إعطاء الإذن بارتكاب حماقات ..... ٦٦
- درس في السياسة : الأخلاق والأدبيات عند الارتباب ..... ٦٧

## الفصل الثالث

- روبنسون كروزو - أو : حدود الحرية الفردية ..... ٧١
- «مملكة الحرية» ..... ٧٣
- الروبنسونية الحديثة وتداعياتها ..... ٧٥
- توازن الروبنسونية مع السياسة ..... ٧٨

## الفصل الرابع

- الجلادون المطيعون - أو : الحدود الضرورية للسلطة والسيادة ..... ٨١
- ما الذي يجعل منا جلادين مطيعين؟ ..... ٨٣
- النتائج غير الإنسانية لتجارب ميلغرام ..... ٨٦
- فرضية الرحمة ..... ٨٩

- ٩٠ ..... فرضية التربية
- ٩١ ..... أهمية إظهار السلطة وتبيانها
- ٩٢ ..... البعد يؤدي إلى عدم الشفقة
- ٩٣ ..... عندما يخفق الحكم الاستبدادي
- ٩٥ ..... الخلاف شرطا للشجاعة الأدبية

### الفصل الخامس

- ٩٧ ورقة المليون جنيه - أو : الفرق بين السياسة الرمزية والسياسة العملية
- ١٠٠ ..... السياسة الرمزية والسياسة العملية
- ١٠١ ..... السياسة العملية الناشطة
- ١٠٨ ..... كيفية البتّ في إجراء الانتخابات
- ١١٠ ..... الباخرة التي تجسّد صورة الدولة
- ١١١ ..... مأزق الديمقراطية
- ١١٢ ..... توزيع العمل بين السياسة العملية والسياسة الرمزية
- ١١٧ ..... أهمية السياسة العملية

### الفصل السادس

- ١٢١ ..... الأمير الصغير والملك - أو : ماذا تفعل الحكومة الجيدة؟
- ١٢٣ ..... فن الحكم
- ١٢٧ ..... الانتقال من التسلّط إلى السيادة كإجراء تاريخي
- ١٢٨ ..... النفوذ والعجز
- ١٣١ ..... إيجابيات السيادة



## الفصل السابع

- هاكلبيرى فىن - أو الطريق الحيرة والارتباك ..... ١٣٣
- أهمية هاكلبيرى التاريخية ..... ١٣٤
- هاكلبيرى فىن والسياسة ..... ١٣٥
- الرباطات الشعبية : المشاركة مع الآخرين فى الشجاعة الأدبية ... ١٣٧
- إيجابيات العمل الحزبى ..... ١٣٩
- السياسة البلدية مدخل إلى السياسة الحزبية ..... ١٤٠
- دور أعضاء الأحزاب فى السياسة العملية ..... ١٤٢
- أعباء السياسة الرمزية ومغرياتها ..... ١٤٣

## الخلاصة

- ثانى أفضل الحلول هو النظام الوحيد للتطبيق ..... ١٤٥
- الملاك إبليس ..... ١٤٥
- روبنسون كروزو ..... ١٤٧
- ميلغرام ..... ١٤٨
- الأميركى الساذج فى لندن ..... ١٤٨
- الأمير الصغير ..... ١٥٠
- هاكلبيرى فىن ..... ١٥٠
- الديموقراطية المتواضعة ..... ١٥١

## المقدمة

### لماذا الاهتمام بالسياسة؟

تعتبر السياسة من الأمور غير الأخلاقية التي تدعو إلى الملل وعدم الاكتراث . في استقصاء للرأي ، احتل الأطباء وأساتذة الجامعات المرتبة الأولى من حيث نظرة المجتمع بينما جاء السياسيون في المرتبة الأخيرة . كما أن البرامج السياسية التلفزيونية هي الأقل تشويقاً لدى المشاهدين . هنا يسأل المرء نفسه لماذا أكتب عن السياسة؟ لماذا سيكون هناك من يهتم بالسياسة؟

إذا أخذت نفسي على سبيل المثال مستعرضاً المعطيات التي دفعتني إلى الاهتمام بالسياسة قد يستطيع المرء عندئذ فهم الدور الهام الذي تلعبه السياسة وفهم الأمور التي تجعل منها ضرورة لا مفرّ منها وما يحيط بها من إثارة وتشويق .

### طريقي إلى السياسة

كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري عندما حصل الاحتكاك الأول بالسياسة بصورة إدراكية واعية . كان ذلك في الخمسينات قبل وجود التلفاز . كانت والدتي تستمع إلى المذياع وهي تكوي الملابس وتوضبها ، وكنت أجلس إلى جانبها منكباً على فروضي المدرسية ، كان المذياع ينقل

نقاشاً في المجلس النيابي حول إعادة التسلح في ألمانيا الاتحادية . لم أكن أفهم كثيراً مما كان يدور حوله الجدل ، لكن الأحاسيس والانفعالات والإصرار التي اتسمت بها كلمات المتحاورين كان لها وقع قوي في نفسي . الجميع كان يتكلم بان دفاع وقناعة تامة بالأراء التي يطرحها محذراً من مخاطر الأخذ بأراء الطرف الآخر . أمر مؤثر ترك وقعاً كبيراً في نفسي ، لكن كان دون الأثر الذي أحدثه ردّ الفعل لوالدتي والحماس الذي كانت تظهره في تأييدها لمناهضي إعادة التسلح لا سيما عندما كانت تهتف قائلة «صحيح» أو «تماماً» أو «حسن هكذا» . تعليقات كانت تطلقها في أعقاب كل كلمة يلقيها أحد الخطباء وكانت حينها تلتفت إلى المذيع بكلمات الشناء والتأييد تلك ، كأن أحدا يقف أمامها يستمع إلى ما تقول من كلمات التأييد منها أيضاً «لقد كان خطاباً رائعاً!» و«هذا أمر واضح وضوح الشمس . لا يمكن لأحد أن يقبل بإعادة التسلح» .

أما مؤيدو إعادة التسلح فكانت تمطرهم بعبارات مثل «يا للعار» و«هذا أمر لا يصدق» و«غير معقول» . وفي نهاية كل كلمة لهؤلاء الخطباء كانت تستشيط غضباً وتقول «لقد كانت كلمة سيئة شريرة» أو «كيف يستطيع المرء قول ذلك؟ عليك أن تخجل من نفسك!» . كان هذا المشهد بالنسبة إليّ مثل حضور مباريات رياضية تتسم بالمنافسة الحادة لأنني لم أكن أفهم الكثير عن الموضوع . ولكن مهما كان من أمر فإنني كنت إلى جانب والدتي أملاً أن يفوز الفريق الذي تنتمي إليه . لكنها منيت بالخسارة . سنة ١٩٥٦ بدأ إعادة بناء جيش الدفاع في ألمانيا الاتحادية .

لم يختلف الأمر عن ذلك خلال المناسبة السياسية الثانية التي لا زلت أذكرها وذلك عندما أخذتنا أمي وجدتي أنا وأختي إلى ساحة البلدة حيث جرى وضع لوحة كبيرة يكتب عليها نتائج الانتخابات البلدية الواردة تباعاً

من المناطق المجاورة . كان الأمر يتعلق بانتخاب عمدة للمدينة ومجلس بلدي .  
لم أعد أذكر لماذا كان هذا الأمر بالغ الأهمية ولكنني ما زلت أذكر أن الأمر  
كان شبيهاً بمباراة كرة القدم حيث كانت تعلق من حين إلى آخر هتافات  
الاستحسان والترحيب من هذه الجماعة أو صراخ التنديد من الفريق الآخر  
وفق مجرى الأمور . لقد كان التنافس شديد الحدة وكانت أمي ونحن إلى  
جانبها نهتف بحماس لمرشحنا الذي خسر في نهاية الأمر .

كانت المشاعر والانفعالات تلعب دوراً حاسماً في الموضوع ، فكانت أمي  
من خلال حماسها واندفاعها تعطي الانطباع بأن السياسة تتعلق بأمر بالغة  
الأهمية . كانت أمي قد ترعرعت على فكرة أن على المرأة أن تكون معتدلة  
في مواقفها ، إلا أن ما كانت تميل إليه من التزام بالمواقف أثار في نفسي حب  
الفضول بالإضافة إلى الرغبة في أن أكون موضع إعجاب عند والدتي ، الأمر  
الذي جعلني أتناول الأمور السياسية باهتمام كبير . كانت المشاعر لا تختلف  
إطلاقاً عن تلك التي تسود مباريات كرة القدم . لسبب من الأسباب يشعر  
المرء بالانتماء إلى فريق ما لكرة القدم ويصاب بالإحباط والهزيمة عندما يخسر  
ذلك الفريق . لم أعرف في ذلك اليوم لماذا يتحمس المرء لذلك المرشح  
للانتخابات دون غيره وما زلت لا أعرف السبب حتى اليوم .

كان شغفي بالسياسة يومها مثل شغف الطفل الصغير الذي يذهب  
بصحبة والده أو شقيقه الأكبر إلى إحدى مباريات كرة القدم عندما تكون  
الأجواء المحيطة بالمرء أكثر فعالية وأقوى من القدرة على التعاطي بمنظور  
عقلاني للأمر . وهكذا أعربت عن رغبتني وأنا في الرابعة عشرة من عمري  
في أن أصبح صحفياً عندما أكبر ، خلافاً لما كان شائعاً عند نظرائي من رغبة  
في العمل في مجال القطارات أو الشرطة .

لقد وضعتني أمي على هذه السكة دون أن تدري ، ولكن كيف وصلت

أمي نفسها إلى هذا الطريق الذي لم يكن مههداً أمام النساء ، أعني الاهتمام  
بالأمور السياسية؟ أمي ، التي ولدت سنة ١٩١٠؟

## حكاية أمي وأبي

بعد كل ما أعرفه حتى الآن أستطيع القول أن أمي لم تكن تهتم بالأمور  
السياسية إطلاقاً في بادئ الأمر ، بل على العكس من ذلك فقد كانت تكره  
السياسة . لقد كان جدي لأمي كاثوليكياً بكل ما في الكلمة من معنى ،  
وكان عضواً فاعلاً في الحزب الكاثوليكي الذي كان قائماً آنذاك تحت اسم  
«الحزب المركزي» . أما جدتي لأمي فكانت بروتستنتية متزمتة مع ميول  
مناهضة للبابا ولكل شيء كاثوليكي لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تحيط  
نفسها به من أبهة وفخامة خلافاً للكنيسة البروتستانتية . وكان الأب يصّر  
على أن تشتري العائلة كل ما يلزمها من حاجات من الباعة الكاثوليك . أما  
الأم فكانت تفعل العكس .

أصرّ الأب على أن يُعمد الأولاد في الكنيسة الكاثوليكية ، لكن الأم  
استطاعت أن تحمل ثلاثة من أولادها الأربعة على اعتناق البروتستانتية .  
كان الوالد من أنصار جمهورية فايمار والوالدة أرادت العودة إلى الدولة  
القيصرية . عندها اختلطت السياسة بالدين والتناصر والرغبة في الانتقام من  
الأخر وتحولت إلى حرب ضروس تزداد ضراوة كلما اجتمعت العائلة .  
تصاعد حدة النقاش إلى أن يقول جدي انه ذاهب لتناول كأس من الجعة في  
الحانة ، لكنه كان في حقيقة الأمر يذهب سراً إلى الكنيسة . كانت والدتي  
تحدثني بتقزز عن تلك المعارك التي كانت والدتي وأخواتها يقفون فيها بين  
نارين لا حول لهم ولا قوة .

عندما بدأ أخاؤها الأكبران يتحدثان بحماس واندفاع عن النازية

متحدّين بذلك الوالد الكاثوليكي بدأ الأمر يزداد تفاقماً في العائلة . كانت النازية في نظر الوالد أسوأ ما يمكن أن يحدث . كانت النازية تعني في نظره نهاية الحضارة البشرية والطريق الأكيد نحو حرب عالمية جديدة . أما النازية في نظر الابنين الأكبرين فكانت بمثابة الانطلاقة الجديدة نحو عالم عصري جديد تكون فيه ألمانيا دولة قوية واضحة المعالم . أما الحزب المركزي الكاثوليكي الذي ينتمي إليه الوالد فكان في نظرهما يجسّد كل ما كانا يكرهانه في جمهورية فايمار مثل الدفاع عن الضعفاء وعن حقوق الإنسان والدعوة إلى التعاون الدولي والقبول بالتسويات والسعي إلى تحقيق السلام مهما كان الثمن . كان الحزب المركزي في نظرهما حزب العجزة وكبار السن ، أما حزبهما الذي كانا يسميانه «الحركة» فكان حزب الشباب والمستقبل والوضوح والسلطة .

كانت الجبهات والصراع على أقصى درجات الحدة والعداء ، لم يكن أي تجمع للعائلة إن كان على مائدة الطعام أو في حديث عادي إلا وينتهي بالصراخ وخبط الأبواب . كان نزاعاً بين الرجال وقد حاولت النساء إصلاح ما في الأمر وإعادة الهدوء وتجنّب النقاش السياسي عند تناول الطعام . لكن الرجال كانوا في عالم آخر ، كانوا يصرخون في وجه بعضهم البعض ويتبادلون التهديد والوعيد ، السبب الذي جعل والدتي تكره السياسة آنذاك ، وربما كان هو السبب أيضاً الذي جعلها تقع في غرام رجل رياضي ممشوق القامة ، نحيل البنية ، لا يتعاطى السياسة من قريب أو بعيد ولم يكن يرغب إلا في تكوين عائلة سعيدة . وكان في طفولته يعاني من والده الذي كان يدفعه دون رحمة نحو المزيد من العمل والطموح في الحياة ، الأمر الذي جعله يكره تطلعات الكبار وطموحاتهم الكبيرة مفضلاً الحياة العائلية الهانئة السعيدة .

هكذا اجتمع شمل الاثنين . كانت والدتي تريد أن يكون لها ستة أبناء

صبية . يعود ذلك إلى وظيفتها الأولى مدفوعة الأجر عندما عملت مربية لدى عائلة كان فيها ستة صبية كانوا كالحيلول الجامحة وقد حققت النجاح في التعامل معهم ، الأمر الذي كان يتناسب مع نظرة والدي إلى مفهوم العائلة السعيدة ، وهكذا توافق الاثنان على الابتعاد عن السياسة التي كانت تأخذ طابعاً يتسم بالحدة والتصعيد .

تزوج والداي سنة ١٩٣٨ عندما كانت السياسة تتجه نحو الحرب العالمية ، بعدما اختارت ألمانيا طريق النازية وأضحت السياسة جزءاً من الحياة اليومية حتى أن تبادل التحية أصبح بمثابة تعبير عن المواقف السياسية . بدأت الاعتقالات السياسية وجرى إبعاد اليهود عن المناصب التي كانوا يحتلونها قبل أن يجري إبعادهم عن مساكنهم لاحقاً . وأحداث مروعة كانت تجري في كل مكان وتحت أنظار الجميع . أخبرتني أمي كيف عاد والدي يوم التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ والدموع في عينيه بعدما شاهد إضرام النار في الكنيس اليهودي وكيف جرى مطاردة اليهود في الشوارع وسط مدينة برلين . مع ذلك رفض والداي عرضاً من أحد الأقارب بالسفر إلى استراليا والإقامة فيها ، كان ذلك عندما انتقل والداي إلى بيت جديد فيه شرفة كبيرة في منطقة جميلة وسط الطبيعة الخضراء ، اشترى له مفروشات لائقة جميلة ، وكان والدي يحلم بهذا ، اختاروا الانطواء في عالمهما الجميل وحياتهما الوداعة دون الالتفات إلى الخطر الحقيقي الذي كان يحيط بهما إلى أن وقعت الواقعة حيث سارت السياسة بالبلاد نحو الحرب والدمار فقضت على عالم الأحلام الذي عمل والداي بجد لتحقيقه .

بدأ الأمر عندما استدعي والدي لأداء الخدمة في المجال المدني ثم إلى الالتحاق بالجيش وهو الذي كان يكره السياسة والعسكر والحروب ، لكن لم يكن في اليد حيلة . لحسن الحظ ، كما كان يعتقد ، فقد طلب إليه الانضمام

إلى فريق الحرس الخاص بسجناء الحرب بدل التوجه إلى جبهة القتال نظراً لتقدمه في العمر ، لقد كان عملاً سهلاً كما كان يظن بادئ الأمر لكنه تحول إلى ما يشبه الجحيم في نهاية المطاف . فقد كان النازيون قد وضعوا البولنديين والروس في مرتبة «ما دون البشر» وقرروا القضاء عليهم سياسياً واقتصادياً وثقافياً وأيضاً جسدياً إلى حد بعيد . وقد عملوا على إيجاد مناخات يسودها الجوع والمرض والأوبئة تقضي على الملايين منهم دون محالة . وقد جرى إتباع هذه السياسة الإجرامية بصورة أكثر شراسة تجاه سجناء الحرب ، فقد حرّمهم من الحد الأدنى من الغذاء وضروريات الحياة خلافاً لمعاهدة جنيف وكذلك خلافاً لما كانوا يعاملون به سجناء الحرب من الدول الغربية . وهكذا قضى الملايين منهم خلال نقلهم إلى المعسكرات أو في داخلها بسبب الأمراض المعدية كالحمى والتيفوئيد والدوسنتاريا .

لا شك أن والدي كان يحدث والدتي عن هذه المشاهدات عندما كان يأتي إلى البيت في الإجازات . أمي التي كانت تعرض عن السياسة بدأت تشعر بالغضب وتوجه الانتقادات إلى تلك السياسة ، كان ذلك في الوقت الذي كان توجيه الانتقاد أكثر خطورة من أي وقت آخر . كانت تقول علناً أن الهزيمة آتية لا محالة وأن الانتقام سيكون له ما يبرره . وقد رفضت الانصياع للأوامر القاضية بمخادرة النساء والأطفال مدينة برلين والتوجه شرقاً إلى المناطق التي كانت بولندية آنذاك ، وذلك قبل قصف المدينة بواسطة الطائرات . كانت أمي تشعر باقتراب الكارثة ، فبدل أن تلجأ إلى المناطق البولندية المحتلة توجهت إلى منطقة شوابن حيث تقيم والدتها . عقاباً لعدم إطاعة الأوامر حرّموها من حق الحصول على سكن خاص بها مع تخفيض كمية الإمدادات الغذائية .

تطور الأمور بهذا الشكل جعل والدتي أكثر إدراكاً بالشؤون السياسية ،



الأمر الذي عاد بالفائدة عليها . أما والدي فقد وجد نفسه في آلية معقدة لا مجال للخروج منها . ففي المعتقل أصيب والدي بوباء الجدري لكنه استطاع التغلب عليه واكتسب مناعة ضده ، الأمر الذي جعل المسؤولين على المعتقلات يرسلونه إلى تلك المعتقلات الأكثر وباءً لحراسة السجناء السوفييت ، وهكذا كان عليه أن يزاو هذه المهمة حتى النهاية التي كانت في الترويج إلى أن وقع في الأسر لدى البريطانيين الذين أعادوه إلى ألمانيا استعداداً لإطلاق سراحه ، لكن السياسة شاءت أن تسقط لعنتها من جديد ، فقد قرر الحلفاء أن تقوم كل دولة منهم بأخذ المعتقلين الألمان الذين تدور حولهم شبهة تعذيب رعاياها خلال فترة الاعتقال .

كان والدي من ضمن إحدى الوحدات التي وضعها الحلفاء على لائحتهم . وجه السوفييت التهمة إلى الوحدة التي كان والدي ينتمي إليها بإطلاق النار على المعتقلين عند محاولتهم الفرار من الأسر ، الأمر الذي يعتبر انتهاكاً لمواد معاهدة جنيف . علماً أن الاتحاد السوفييتي نفسه لم يتقيد بتلك المعاهدة ، ولم يقرّ بوجود معتقلين من مواطنيه لدى الألمان وبالتالي لم يسعَ أبداً إلى الاستفادة من تلك المعاهدة أو من الصليب الأحمر من أجل مساعدة الأسرى من مواطنيه أو التخفيف من مآسيهم . وهكذا جرى بعد انتهاء الحرب توجيه تهمة العمالة إلى من بقي على قيد الحياة من الأسرى الألمان وتم إرسالهم إلى معسكرات العمل في سيبيريا . لم يكن الهدف من إقدام الاتحاد السوفييتي على هذه الخطوة هو الثأر لما حلّ بمواطنيه خلال الأسر لدى الألمان ، بل كان الهدف الواضح من توجيه التهم جزافاً هو الحصول على أكبر قدر من اليد العاملة دون أي كلفة تذكر . فكان توجيه تهمة ارتكاب جرائم الحرب يتم استناداً إلى أسباب واهية في أكثر الأحيان .

وهكذا جرى تسليم والدي بعد إطلاق سراحه من قبل البريطانيين إلى

السوفييت الذين زجوا به في ما كان يعرف بمعقل زاكسينهاوزن إلى الشمال من برلين . وكان السوفييت قد وضعوا أيديهم على معسكرات الاعتقال السابقة ليزجوا فيها من يتهمونهم بارتكاب جرائم حرب ، بحق أو دون حق ، بالإضافة إلى الفعاليات النازية ، أيضاً بصورة لا تخلو من التعسف كانوا يعتقلون شخصيات ديمقراطية لا يتفقون معهم في السياسة . بعض الذين كانوا مع والدي في ذلك المعتقل وجرى إطلاق سراحهم بسبب أوضاعهم الصحية ، أو ببساطة لأن الحظ كان حليفاً لهم ، تحدثوا عن أساليب التعذيب والضرب وسوء التغذية التي كان الأسرى يعيشونها قبل نقلهم إلى سيبيريا . ثم نقل الأسرى القادرون على العمل إلى معسكر للاعتقال في سيبيريا بالقرب من أحد مناجم الفحم .

الجوع والبرد القارص والإرهاق انتهى بوالدي إلى وضع صحي سيئ للغاية ، شعره وأسنانه بدأت تتساقط ، ترافقت مع أزمات قلبية حادة . لم يعد يصلح لأي شيء .

قرر السوفييت إطلاق سراح والدي وغيره من الأسرى الذين أصبحوا غير صالحين للاستهلاك إلى ألمانيا وإعادتهم إلى ألمانيا ، إلا أن والدي ما لبث أن فارق الحياة في معسكر قرب موسكو قبل إطلاق سراحه بسبب الإعياء الشديد ، كان ذلك في فترة أعياد الميلاد ، سنة بعد انتهاء الحرب .

... نتيجة ما حصل بالنسبة إليّ

الرجل الذي أمضى الليلة الأخيرة إلى جانب والدي على فراش مصنوع من الورق والكرتون جاء إلى والدتي بخبر وفاة والدي .

والدتي التي كانت إلى جانب والدي تسعى بكل ما أوتيت من قوة أن تكون وإياه بعيدين عن السياسة . ترى اليوم أن السياسة هي التي قضت على

كل ما تملك ، فقد مات زوجها ومنزلها الجميل في برلين تحول إلى ركام ، قطع الأثاث القليلة التي استطاعت إنقاذها من قبو المنزل الذي امتلأ بالمياه موجودة الآن في منزل أمها حيث باتت تقيم مع أطفالها الثلاثة تعيش معهم على قوت الجدة وكأنها عادت لتكون طفلة مثل أولادها .

الحرب دفعتها دفعا إلى السياسة . ما كان عليها أن تعانيه لا يجب أن يتكرر بحال من الأحوال . لن تقف مكتوفة الأيدي بعد الآن ، ستفعل المستحيل للحيلولة دون وقوع حرب أخرى . ستقوم بما عليها أن تقوم به على الأقل للمشاركة في تقرير ما سيكون عليه مصيرها بعد الآن . وهكذا بدأت تتابع المناقشات الحزبية حول إعادة تسليح ألمانيا بشغف واهتمام كبيرين ، وأخذت تصطحبنا ، نحن الأطفال ، إلى ساحة البلدة حيث كان يجري الإعلان تباعاً عن نتائج الانتخابات الذي لا يخلو من الانفعال مهد الطريق أمامي للاهتمام بالسياسة . هذا الالتزام الذي اتسمت به والدتي كان في نظري نموذجاً للالتزام الذي يجب الإقتداء به ، فالأمر الذي جرى لوالدتي جعلني أدرك العواقب التي قد تترتب على السياسة ، عواقب مصيرية قد يتوقف عليها أمر الحياة أو الموت ، لذا لا بد من المبادرة إلى الفعل ونبذ اللامبالاة . هكذا بدأت في دراسة العلوم السياسية بهدف العمل في الصحافة ، لكن الأمر انتهى بي إلى مجال العلوم حيث ما زلت حتى اليوم .

بعد مرور كل تلك السنين أدركت بصفتي من رجال العلم أن الواقع في السياسة يختلف كلياً عما تحاول السياسة أن تظهره في وسائل الإعلام . فلدى الكتب المدرسية ووسائل الإعلام وخصوصاً الأحزاب السياسية ورموزها ميل نحو إعطاء صورة مثالية عن الديمقراطية وكأن الأمر يتعلق بالمصلحة العامة زاعمين أن ما يقومون به هو نزولاً عند رغبة الناخبين وإرادة الشعب ، لذلك تراهم يتحدثون عن مبادئ سامية زاعمين أنها قابلة للتحقيق .

من خلال نظرتي العلمية للسياسة طيلة هذه السنوات تعلمت أن أخطر ما في السياسة بالنسبة إلى الديمقراطية هو المبالغة والمزايدة في إضفاء المثالية على الوعود والتطلعات لأن هذه المزايدات ستؤدي حتماً إلى خيبة الأمل ، الأمر الذي سيؤدي بدوره إلى اللامبالاة والزهد بالسياسة لتكون النتيجة في معظم الأحيان الانزلاق نحو بدائل راديكالية يمينية كانت أم يسارية لأن هكذا تيارات هي الأكثر قدرة على المزايدة في إطلاق الوعود مستفيدة من خيبات الأمل التي نشأت نتيجة لوعود لم تتحقق ، يتم ذلك تحت شعار : عندما نصل إلى السلطة سنجد حلاً جذرياً لجميع المشكلات .

كذلك ومن خلال نظرتي العلمية للسياسة خلال هذه السنوات استطعت أن أكون لنفسي نظرة مجردة إلى السياسة . أحاول الآن في كتابي هذا أن أشرح المخاطر التي تحيط بالمبالغة في إطلاق الوعود وإضفاء طابع المثالية عليها وذلك من خلال مناقشتها وتسليط الضوء عليها .



## الفصل الأول

### ملاك أسمه إبليس - أو: ما هو أفضل مجتمع؟

في قرية صغيرة في النمسا ، بقيت على حالها منذ القرون الوسطى تعرف ثلاثة من الصبية فيها . في أحد الأيام ، وصل رجل غريب الأطوار كان يعرف كل شيء عن هؤلاء الصبية حتى أنه كان يعلم ما يدور في رؤوسهم من أفكار ، وكان يخلق من لا شيء أشياء كان الصبية يفكرون بها في تلك اللحظة . وكان يأخذ بعض الطين في يده يصنع منه أشكالاً مثل السناجب والطيور التي ما أن يضعها على الأرض حتى تراها تعدو على الأرض أو تحلق في السماء حية ترزق . كان الصبية ينظرون بدهشة وانبهار إلى هذا الرجل الغريب إلى أن سأله أحدهم من يكون ، فأجاب بكل بساطة «ملاك» .

تسمّر الصبية في أماكنهم رهبة ومهابة إلى أن قام الملك بصنع عالم صغير أمام أعينهم محاولاً توجيه انتباههم إليه لإخراجهم من حالة الذهول وعدم الحراك . فقد صنع من الطين المئات من الأشخاص الصغار بطول الإصبع التي كاد يضعها على الأرض حتى تدبّ فيها الحياة وتبدأ بالعمل . اختار هؤلاء الأشخاص قطعة أرض شرعوا في استصلاحها بعد أن اجتثوا الأعشاب منها وعملوا في قطع الأخشاب والصخور لبناء البيوت والأكواخ والحظائر ، ثم صنعوا من الطين أحجاراً صغيرة بنوا منها الأسوار ثم شيّدوا وسط الأسوار قلعة صغيرة فيها الأبراج والمعابر والجسور والتحصينات . في

اللحظة التي توجه أحد الصبية إلى الملاك سائلاً إياه عن اسمه ، كان هذا يحاول إنقاذ أحد هؤلاء المخلوقات الذي تعثر على إحدى السقالات المرتفعة وكان على وشك السقوط أرضاً لاقياً حتفه لا محالة إن لم ينقذه الملاك في آخر لحظة ، وهو الذي أجاب على السؤال بصوت لا يكاد يسمعه أحد بقوله «إبليس» .

بعد الذهول ، دبّ الذعر والهلع في نفوس الصبية . عندها حاول الملاك الشيطان التخفيف من روعهم موضحاً لهم أن هذا الاسم يعود أصلاً إلى عمّ بعيد له لا يتصل به بعلاقة قريبي وثيقة وقد سمّي على اسمه فقط لا غير ، وأضاف أنه ، أي الملاك شيطان وخلفاً لعمه ، لا يعرف الخطيئة بما أنه لا يعرف الفرق بين الخير والشر . بينما كان يقول ذلك هرس بين أصابعه اثنين من شخصه كانا قد شرعا في العراك بعد خلاف بينهما . اخذ منشفة في يده يزيل بها الدماء عن أصابعه وأضاف قائلاً : «إن الأخلاق هي اكبر عقاب نزل بالبشرية» .

هذه كانت البداية المبررة لقصة مارك توين (Mark Twain) التي تحمل عنوان «الغريب الغامض» . كان الكاتب الأميركي ، في القرن التاسع عشر ، مارك توين بروايتيه «مغامرات توم سوير» و«هاكيلبيري فين» قد ترك في الصالونات الناطقة بالألمانية انطباعاً أنه كان كاتب روايات هزلية للناشئة فقط لا غير . إلا أنه كان في الحقيقة ، رجلاً ساحراً لا يؤمن بالقيم ، كشف القناع عن حقيقة النفاق والرياء والغرسة التي كانت سائدة في عصره بأسلوب يتسم بالسخرية الحادة اللاذعة لا سيما في كتابه «الغريب الغامض» .

من المفروض الملاك إبليس هذا أن يساعدنا في إطلاق العنان لمخيلتنا وتحريتنا من الأفكار والتوقعات والأهداف الموضوعية أمامنا مسبقاً ، بمساعدة الملاك إبليس الذي لا يعرف الأخلاقيات ويعرف الفرق بين الخير والشر

والذي يخلق من الطين مجتمعات متكاملة ثم يعيدها إلى طين إذا أراد ،  
بمساعدة الملاك إبليس هذا نريد إيجاد بضعة مجتمعات في مخيلتنا ونحرب  
من خلالها أن نكتشف أي مجتمع منها هو الأفضل . إن وضع هيكلية لمجتمع  
كهذا لا شك أنه سيكون هدفاً جيداً على السياسة أن تعمل على تحقيقه .

هنا يجب أن يكون النجاح هو المقياس الأول للحكم على تلك العوالم  
التي بنيناها في مخيلتنا . ولاختبار ذلك يجب أن نترك كل من تلك  
المجتمعات تتفاعل بغض النظر عن الأخلاقيات لمعرفة إن كانت ستزدهر  
وتنمو أم أنها ستكون عرضة للتفكك والانهار ، علماً أن هذا المقياس هو نفسه  
الذي تعتمده الطبيعة ويعتمده التاريخ في حكمهما على الخليقة . فليختلف  
ما يختفي ولينهر ما ينهار بغض النظر عن إذا كان خيراً أم شراً من الناحية  
الأخلاقية ، فهو نفسه يكون قد قضى على ذاته بذاته ككيان من حيث  
النجاح والقدرة على النقاء .

أما المقياس الثاني الذي يتوجب علينا اعتماده فهو ذلك المقياس المتطور  
الذي وضعه الفيلسوف الأميركي جون راولز حول العدالة في المجتمع وهو  
حجاب عدم المعرفة أو بكلمات أخرى الستار الذي يحجب الدراية ويعني  
بذلك أن الحكم على مجتمع ما بأنه مجتمع عادل يعني أنه هو المجتمع الذي  
يسوده مبدأ القبول بقواعده وقوانينه دون أن يعرف المرء مسبقاً أي مرتبة  
سيحتلها في هذا المجتمع وذلك انطلاقاً من أي موقع هو فيه ، أكان غنياً أم  
فقيراً ، محدود القدرات أم عبقرياً ، جميلاً أم قبيحاً أو عجوزاً أم كان في  
مقتبل العمر . هذا هو ، أقل ما يقال فيه ، مبدأ العدالة المحدد من حيث  
المضمون وإن كان الأبعد عن مفهوم الأخلاقيات ، وهو المبدأ الذي يتناسب  
تماماً مع جوهر الملاك إبليس .



## عالم الملك إبليس الأول

### مجتمع خالص يتصف بإنكار الذات

عند السؤال عن المجتمع المثالي يأتي الجواب سريعاً على لسان معظم الناس : إنه المجتمع الذي يتسم بإنكار الذات . لا يتصف فيه الناس بالأناثية ، بل بالإيثار وإنكار الذات والعمل يداً واحدة من أجل الكل . الجميع يعمل بحماس من أجل خير الجميع واطعاً المصلحة الخاصة وراء ظهره . مقياس العدالة القائم على عدم الدراية بالمكانة التي سيحتلها المرء في ذلك المجتمع يكون هنا قد تحقق ، وهو المقياس القائم على إنكار الذات والعمل بكل ما أوتي المرء من قوة من أجل المصلحة العامة . عند وصول هذا الكل المتكامل إلى حالته الأمثل يكون كل فرد في المجتمع قد وصل إلى المكانة الأمثل له في المجتمع .

كلمة مجتمع أو مدلول هذه الكلمة جاء إلى لغتنا بهذا المعنى والمضمون . قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، كان ما نسميه اليوم مجتمعاً يعني أشياء مختلفة مثل الأرض ، المملكة ، الإمارة أو ما كان المثقفون يطلقون عليه باللغة اللاتينية تعبير *res publica* أي (الشأن العام) . هذا بالإضافة إلى أن كلمة «الفردية» وكذلك كلمة «المواطن» لم تكونا متداولتين في ذلك الوقت ، إذ لم يكن الناس آنذاك عبارة عن مجموعة من الأفراد يتساوى كل منهم في الحقوق والواجبات والكرامة ، بل كان المقياس هو موقع هذا الإنسان وسط الآخرين . لم يكن المرء إنساناً ، بل أميراً ، كاهناً ، راهباً ، حرفياً ، عاملاً ، مزارعاً ، أجيراً أو خادماً . كان أمر المساواة في الحقوق والواجبات أمراً لا يمكن التفكير به خلال فترة ما قبل الثورة ، فكل موقع كان له حقوقه وواجباته . كانت واجبات الملك تختلف عن تلك التي كانت للبواب أو للمزارع أو للعامل في مجال التجارة وبالتالي كانت لكل منهم حقوق تختلف عن تلك التي

كانت لغيره . كان على الملك أن يحكم البلاد ويحميها من المخاطر وكانت له بالتالي حقوق تكاد تكون غير محدودة . أما المزارع فكان عليه أن يوفر المواد الغذائية والعمل في خدمة سيده وأداء الخدمة العسكرية مقابل حثقه في أن يكون تحت حماية سيده والحصول على جزء من محاصيل الأرض التي أوكل إليه العمل فيها .

في ذلك المجتمع أو في تلك الهيكلية الطبقية اوجد المال الركيزة الأولى للمقارنة بين ما لم تكن المقارنة مطروحة فيه أصلاً ، فالنقود هي النقود لا فرق إن أتت من ملك أم من متسول . وبالنقود لكل سلعة ثمنها ، أكانت تلك السلعة حليياً أم قماشاً أم أرضاً أم ماشية . أوجدت النقود ركيزة التشابه بين الأشياء ، وبالتالي مهدت الطريق أمام التغيير في أسلوب التفكير ، الأمر الذي سيؤدي حتماً ومن خلال نمط لم يكن مألوفاً آنذاك إلى إيجاد نظرة تركز إلى شيء من المساواة بين الناس رغم الاختلاف الواضح بينهم من حيث الموقع والمكانة في تلك البنية الطبقية ، وبالتالي النظر إليهم كمواطنين متساوين في الحقوق . ما نعتبره اليوم من البديهيّات أو المسلمات من حيث التفكير المطلق بالمساواة بين البشر والتفكير بكيئونة «الفرد» كان يومها نقلة نوعية شكلت ثورة فكرية نوعية .

من خلال الثورة الفرنسية وإعلان استقلال أمريكا استطاع هذا النمط من الفكر أن يثبت إقدامه ويصبح حقيقة واقعة وانتشر في جميع أنحاء أوروبا مع ظهور نابوليون . لقد تمّ اكتشاف «الفرد» . من حق الفرد أن يعمل على تحقيق الذات وبلورتها بحرية كاملة تتوقف عند حرية الآخر في ممارسة هذا الحق أيضاً . حتى أن إعلان استقلال الولايات المتحدة قد نصّ على حق الفرد في السعي إلى تحقيق السعادة «Pursuit of Happiness» .

هذا التوجه الثوري نحو المساواة كان بمثابة ضربة شديدة وخسارة مريرة بالنسبة إلى طبقة النبلاء . كان ظهور ذلك الفرد الثائر في نظرهم يعني اندثار

النظام الإلهي والقضاء على تلك الحضارة التي أعطاها الله للبشر ، وكان التأكيد على حقوق الفرد في نظرهم يعني تعريض المبدأ القائم على الالتزام والتقيّد بالواجبات تجاه الكيان الكلّي إلى خطر داهم وبالتالي إلى الهلاك . في مواجهة هذا الخطر تمّ اللجوء إلى اعتماد مفهوم «المجتمع» ، وهي كلمة تعني من حيث المضمون انضمام الواحد إلى الآخر وإجماع على أمر محدد . وهو مفهوم قديم العهد كان يستعمل عندنا ، تتضافر جهود عدد كبير من الناس لتحقيق هدف مشترك . كان اختيار هذه الكلمة بمثابة الأسلوب الأمثل للطعن والهجوم المضاد على مبدأ الفردية والأناية لدى الثوار . في كلمة مجتمع تظهر صورة ذلك المجتمع الذي يتّصف بإنكار الذات على أنه النموذج الأمثل .

إذا أردنا أن نعود إلى أصول كلمة المجتمع وإعطائها حقها ، فلا بد لنا بادئ ذي بدء من ترك الملاك إبليس يعمل على بناء ذلك المجتمع القائم على نكران الذات ، الأمر الذي يتناسب مع كلمة ملاك . إنه سيكون دون شك مجتمعاً ملائكياً بكل ما للكلمة من معنى .

### أمثلة عن المجتمع الناصر للذات

لكي يكون للإيثار ولنكران الذات معناهما الحقيقي لا بد لنا من وضع أفضل المفكرين على رأس الهرم في المجتمع . هؤلاء المفكرون هم الأكثر قدرة على إيصالنا إلى الحقيقة ، وبالتالي فهم قادرون على وضع السياسة السليمة من خلال ما يتمتعون به من حكمة . هذه السياسة ستكون دون شك سياسة نظيفة في مجتمع يتمتع بفضيلة الإيثار ونكران الذات ، لا سيما وأن هذه السياسة تقوم على إدراك الحقيقة من قبل أشخاص هم الأقدر على معرفتها والأقدر على استنفار جميع القوى لجعلها موضع التنفيذ .

إن العديدين - لا سيما الشباب منهم - سيقولون : إذا كانت السياسة

على هذا النحو فإنني سأكون في مقدمة من يؤيدونها . هذه السياسة ستمهد الطريق نحو المستقبل وتحقق العدالة والأمان في الحاضر .

إن هذا التصور للسياسة هو تصور واضح يحاكي العقل لدرجة أنه كان دوماً على امتداد تاريخ البشرية النموذج الأمثل في رأي الفلاسفة ومؤسسي الأديان .

حتى في العصور القديمة والمجتمعات الأولى مثلاً عند الفراعنة وكذلك عند الهندوس جرت محاولات لتحقيق هذا النموذج المثالي . ففي مصر القديمة كان الكهنة يتنبئون بوقوع الفيضانات وكان ملوك الفراعنة يعملون للدفاع عن البلاد ضد الدخلاء ، وكان الشعب يعمل على توفير ما تحتاجه البلاد من غذاء وموارد كان لكل واحد موقعه المناسب في المجتمع .

الكثيرون يعرفون من خلال الكتب المدرسية كيف كانت البنية الكلاسيكية للمجتمع في روما القديمة ، تلك البنية التي كانت تشبه جسد الإنسان : النخبة كانت تشكل الرأس المدبر الذي يشرف على كل شيء ، وكان الفلاحون يشكلون البطن ، والتجار بمثابة الساقين والحرفيون والجنود يشكلون الذراعين . ما كان للرأس إن يحيا ويعيش دون باقي الأجزاء والأطراف التي كانت في موقعها الصحيح وتقوم بالعمل الصحيح وعلى أكمل وجه .

حتى في يومنا الحاضر ما زال الهندوس المتدينون يتمسكون بهذه الهيكلية المتوارثة القائمة على المجموعات المهنية والمختصة المعروفة بمجتمع الطبقات الذي وإن تغيرت فيه بعض الممارسات والقواعد إلا أنه ما زال قائماً على التمييز بين الطبقات المجتمعية ، التي يتوجب على كل واحدة منها أن تقوم بواجباتها على أكمل وجه في خدمة الكل ولصالح الكل ، هذا الكل الذي يقوم بدوره بتوفير كل ما تحتاجه هذه الطبقة للقيام بما هو مطلوب منها .

الطبقة العليا في المجتمع يجب أن تتكون من كبار المفكرين وتكون بالتالي بمثابة القدوة والمثل الأعلى للآخرين ، ويكون عليها من خلال ما نتمتع به من حكمة أن تقود المجتمع إلى ما هو الأفضل والأحسن ، ويكون على الآخرين إتباع توجيهاتها والأخذ بنصحتها لتحقيق الغاية المنشودة وذلك من خلال قيام كل فئة بما هو مطلوب منها ، فعلى الجندي أن يدافع عن الوطن ، وعلى المزارع زراعة الأرض ، وعلى الحرفي توفير الحاجات المطلوبة ، وعلى التاجر توزيع هذه الحاجيات على مختلف المناطق كما يكون على الخادم القيام بجميع الأعمال المتبقية . بما أن هذه المواقع المختلفة تكون محددة مع ولادة الإنسان وهي بالتالي ، كما هو مرسوم ، بمثابة مكافأة أو عقاب لما قام به الإنسان في حياته السابقة وعليه فهي حتمية غير قابلة للتغيير لأنها من الأمور المقدسة . فقد تحول الإيثار ونكران الذات إلى وسيلة للاضطهاد والظلم في أحيان عديدة .

حتى في دولة الإغريق القديمة كانت مثل هذه الصورة من المجتمع موجودة ، وكانت تعتبر الآلية الوحيدة الممكنة على الإطلاق . فقد طالب أفلاطون بأن يقوم كبير الفلاسفة بقيادة المجتمع ويكون على الآخرين الانصياع طوعاً لأوامره ولسلطته التي تكون فوق القانون . ذلك القانون الذي تقتصر مهماته على معالجة جميع الأمور الأخرى باستثناء تلك التي يرى الفيلسوف أن انتهاك حرمة القانون قد يكون له ما يبرره في بعض الحالات ، وهو ، أي الفيلسوف ، وحده القادر على الحكم في هذا الشأن ، وبالتالي فإن الفيلسوف هو وحده ، على حد قول أفلاطون ، القادر أن يكون أكثر عدلاً من القانون وأكثر عدالة من الديمقراطية ، أي سلطة الشعب ، لأنه وحده القادر على امتلاك الحكمة .

● الثورة الفرنسية : خلال الثورة الفرنسية استطاع الفيلسوف جون جاك روسو تحت تأثير الأفكار الجديدة حول المساواة تطوير بديل مثير للاهتمام لدولة الفيلسوف الأفلاطونية . فبدلاً من قيام فرد واحد باحتكار الحكمة بشكل

مطلق يجب أن تكون الحكمة متمثلة في الجميع وذلك بأن يحصل كل رجل متزوج - صفة مواطن كانت تعني حصراً الرجل المتزوج آنذاك - على حصة متساوية من الأرض والماشية وتجعله مستقلاً بشكل كامل عن الآخرين . بهذه الطريق يمكن القضاء على الأزمات وتضارب المصالح بعد تساوي المصالح بين الجميع ، وبالتالي لن تتحكم المصالح الفردية الاستثنائية بأسلوب التفكير لدى كل واحد منهم وتتحول الإرادة لديهم تدريجاً وبصورة آلية نحو الصالح العالم ، الأمر الذي سيؤدي حكماً إلى أن يصب كل ما هو أفضل في خانة الكل ولصالحه .

في معظم رؤوس الناس يتمثل هذا التصور عن المجتمع القائم على آلية متجانسة يخضع لها جميع الأطراف بهدف تحقيق ما هو أفضل للمجتمع . هذه الصورة ما زالت قائمة حتى اليوم في أذهان البشر لا سيما وأنها ، أي هذه الآلية القائمة على التراتبية الطبقية بقيادة النخبة ، قد برهنت على قدرتها على البقاء لقرون عديدة من الزمن ، خصوصاً وأنها بدت وكأنها تضمنت في نفسها جميع المعايير المطلوبة لا سيما القدرة على الاستمرارية والبقاء . وعندما تعمل هذه الآلية بصورة ترضي الجميع تكون بذلك قد حققت المعيار الثاني وهو العدالة التي تجعل كل فرد مهما اختلف موقعه طبقياً في المجتمع يرضى بقواعد هذه المنظومة .

لا فرق هنا بين نظام الطبقات عند الهندوس أو بين نظام الفيلسوف لدى أفلاطون أو فكرة الصالح العام عند جون جاك روسو فالجميع يشتركون في الدعوة إلى ضرورة تحويل المجتمع إلى آلية تنتفي فيها المصالح الخاصة أو الاستثنائية . الجميع يشارك في الرأي بضرورة أن يكون للمجتمع غاية مثالية واحدة مشتركة تغطيه المناعة وتضعه على السكة السليمة وتجعله قادراً على مواجهة جميع المخاطر .

لو افترضنا أن الملاك إبليس الذي لا يعرف الخير والشر وبالتالي فهو

حيادي غير منحاز ، لو افترضنا أنه أراد إنشاء مجتمع كهذا وترك هذا المجتمع على سبيل الاختبار يتفاعل مع نفسه لأجيال وأجيال فماذا ستكون النتيجة؟

## من سلبيات المجتمع ناكر الذات

مشكلة اختيار النخب : أفلاطون نفسه وهو مخترع دولة الفيلسوف كان على معرفة بالمشكلة المركزية في المجتمع الطبقي القائم على الإيثار ونكران الذات : في قفير النحل يمكن بسهولة التعرف على ملكة النحل وفي قطع الغنم يمكن بسهولة التعرف على الراعي وهو كائن بشري بين مجموعة من الحيوانات . لكن من يستطيع التعرف على الفيلسوف وهو إنسان بين أمثاله من البشر؟ كل مجموعة في المجتمع تستطيع أن تشير إلى أي كان قائلة انه الفيلسوف هكذا يبدأ ذلك النزاع الذي أراد المجتمع القائم على الإيثار وإنكار الذات تجنبه وعدم الوقوع فيه لأنه النقيض الأول لذلك المجتمع .

وهكذا نجد باستمرار أن هناك من يقول أن هذا الشخص أو ذاك هو الشخص المناسب وأنه الأقدر والأكثر حكمة لتبوء هذا المنصب أو ذاك . هناك نجد أننا وقعنا في الحفرة التي كان هدفنا الأول عدم الوقوع فيها ، أي أن نجد أنفسنا في ذلك الوضع الذي يتسم بالأنانية والتعنت والتصلب في المواقف وهو الوضع الذي نرى فيه الأحزاب تتصارع حيث يدعي كل منها أنه على حق وأن مرشحها هو الأفضل . هذه هي السياسة في حالتها العادية .

مرة أولى وثانية وثالثة تطغى هذه المشكلات على السطح في مجتمعات كهذه : أولاً كيف يمكن تحديد من هو أفضل وكيف يمكن تعريف الفيلسوف الكبير ، أي الأمين العام «الحقيقي والصحيح» للجنة المركزية ، وتعريف «الملك الصالح» و«القائد» الأوحده الذي يستحق أن نضحى بمصالحنا من اجله ، هذا أولاً ، أما ثانياً فقد تبين مراراً وتكراراً أن للناس ، حتى في أفضل حالات

المسارات من الناحية المادية ودون الملكية الخاصة في قطاع الإنتاج ،  
اهتمامات متباينة ورؤى مختلفة تحول دون اتفاقهم على تحديد ما هو الأحسن  
بالنسبة إلى المجتمع .

مشكلة اختيار المعلومات : حتى وإن أمكن اختيار الأفضل من بين  
الأفضل ليكون على رأس الهرم في المجتمع ستظهر مشكلة أخرى مزمنة  
يتصف بها هكذا مجتمع : الجالسون فوق يعتمدون على الجالسين تحت  
للحصول على المعلومات لأنهم معزولون عن الواقع ، بعيدون عنه لا اتصال  
مباشر بينهم وبينه ، حيث تشكل طبقة الخدم والأعوان ومنفذي الأوامر  
والمخبرين ما يشبه طبقة عازلة تحول دون الاحتكاك المباشر بين القادة  
والشعب .

الفيلسوف هيغل أوضح هذه الحالة استناداً إلى العلاقة بين السيد  
والعبد : السيد لا يستطيع أن يعرف ما يجري من تحولات ومتغيرات في  
العالم إلا من خلال ما ينقله إليه العبد من معلومات وبالتالي التأقلم معها ،  
وفي الوقت نفسه يدعي ، أي السيد ، انه يملك الحكمة ويتمتع بها وبالتالي  
أنه الأقدر على فهم الواقع ومكوناته مقارنةً بما هو حال العبد فهو بتفوقه هذا لا  
يمكنه السماح بتلقي النصح والموعظة من العبد ولذلك تراه تحفظ على  
المعلومات التي يأتي بها العبد واطعاً نفسه موضع الجهل وقلة الإدراك ، خلافاً  
للعبد الذي يزداد علماً ومعرفة وقدرة على التأقلم مع المتغيرات في واقع  
المجتمع وهكذا يتحول هذا العبد إلى الطرف الأقوى والأكثر قدرة على الحركة  
والتفاعل مع الواقع ويتحول سيده إلى الطرف الذي يسير به على طريق الحيرة  
والضياع ، وبالتالي فإن أراد الحفاظ على نفسه في خضم هذه المتغيرات فإنه  
سيكون عليه القضاء على سيده والجلوس مكانه .



وهكذا ، على حدّ تعبير هيغل - يعيد التاريخ نفسه - ذلك التاريخ الذي أطلق عليه اسم الجدلية .

أما السيد الذي بدأ يدرك ما يحيط به من خطر فسيكون عليه الإصرار والتأكيد على ما يتمتع به من حكمة في هذا المجتمع مؤكداً على ضرورة خضوع العبد لسيدته نظراً إلى ما يتمتع به من رؤية أفضل ، الأمر الذي سيؤدي بنا حتماً إلى عكس ما كنا نبتغيه ، أي أننا سنتحول إلى ديكتاتورية تتعارض كلياً مع ما كان يطمح إليه المجتمع القائم على الإيثار ونكران الذات .

عندما تضرب الديكتاتورية جذورها في الأرض تزداد المشكلة حدة وتفاقماً ، إذ يعرض المضطهدون والمطلوبون والأتباع والأعوان عن نقل المعلومات الصحيحة إلى الديكتاتور خوفاً من إثارة غضبه ، الأمر الذي قد يؤدي إلى الهلاك . وهكذا نرى في الديكتاتور ، بتصرفه هذا ، قد وضع نفسه في عالم غير واقعي شبيه بعالم الأحلام وقصص الأطفال . أما الأعوان فهم يعيشون الواقع بحقيقته . ذلك العالم الذي يزداد تطرفاً وابتعاداً عن حق الإدراك أنهم هم من سيدفعون الثمن وينالون العقاب نتيجة أي فشل يلحق بأي مشروع من مشاريع الديكتاتور أو أي نكسة تلحق به ، لذلك تراهم قد طوروا أسلوباً سرّياً خاصاً بهم في تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من فوق . هكذا نجد أن من يجلس على رأس ذلك الهرم يفقد تدريجياً الاتصال بالواقع وبالتالي يفقد بصورة متوازنة القدرة على قيادة المجتمع لا سيما وأن الأعوان يقومون حرصاً منهم على حماية أنفسهم بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه بصورة مغايرة لما هو مطلوب منهم . إنهم يتظاهرون بالطاعة لكنهم في الواقع يعملون لصالحهم الخاص .

يحدث أحيانا أن يكتشف أمر أحد هؤلاء الأعوان فيلقى العقاب ، وهذا أمر سيء ولا شك ، لكن هؤلاء الأعوان يدركون تماماً أن الأمور ستكون أكثر

سوءاً لو نفذوا الأوامر بحذافيرها . وهكذا نرى أن هذه المجتمعات القائمة على الإيثار وإنكار الذات تتحول سريعاً إلى بنية مختلفة لا تخلو من الغرابة والصعوبة في أنفسهم : في قمة الهرم نجد النخبة تمارس الديكتاتورية وهي عاجزة عن استيعاب المتغيرات على أرض الواقع ، وفي الأسفل نجد الشعب المعذب الذي اضطر إلى تعلّم الكذب والرياء والتزلف . وهكذا نرى أن ذلك التصور الذي نشأ في بادئ الأمر حول المجتمع المثالي قد تحول إلى نقيضه ، أي إلى مجتمع مرء في ظل ديكتاتورية تتسم بانفصام الشخصية والتركيبية .

نموذجان من القرن العشرين : النازية والستالينية لم يظهر ذلك النموذج من المجتمع القائم على الإيثار وإنكار الذات بصورته الحقيقية إلا في القرن العشرين مع بروز موجة العقائد الكبرى التي ما لبثت أن تحولت إلى كارثتين هائلتين وهما الستالينية والنازية .

كما هو الحال في جسم الإنسان وجدت النازية أن على كل عضو أن يقوم بدوره بالتنسيق والتجانس مع أعضاء الجسم الأخرى . وهكذا كان المطلوب من الفعاليات في المجتمع كالمقاولين والعمال والأطباء والفلاحين وغيرهم تنظيم أنفسهم في اتحادات تكون تحت إشراف حزب «القائد» الذي هو الأقدر على معرفة ما هو في صالح الشعب . وكما هو الحال في الجسم البشري لا بد من تحديد العناصر الضارة والأورام والطفيليات والقضاء عليها .

كان هتلر وأتباعه من «المناضلين القدامى» قد تبناوا الفكرة المنتشرة آنذاك أن ازدهار البشرية وهلاكها يتوقفان على القدرات المتوارثة أي على الجينات البشرية . مع مطلع القرن العشرين ساد الاعتقاد حتى عند العلماء أن النزعة الإجرامية وكذلك الفقر هما نتيجة وراثية ، والدليل على ذلك أن معظم الفقراء والمجرمين هم أبناء الفقراء والمجرمين على وجه العموم . وكما هو الحال عند البشر ، إذ أن هناك السلالات الأصلية وكذلك السلالات السيئة ويدور

بينها صراع على البقاء تماماً كما يجري في عالم الحيوان الطبيعي ، حيث تنتصر في نهاية الأمر السلالة الأحسن والأقوى من الناحية الجينية تماماً كما هو الحال في المجتمعات البشرية . في نظر النازيين ، كانت السلالة «الجرمانية» هي بطبيعة الحال هي الأحسن ، أما السلالة «اليهودية» فهي الأسوأ . لهذا يرون انه لا مفر من وجود ضحايا في هذا الصراع على البقاء الذي يخوضه هذا الجيل من المجتمع القائم على الإيثار وإنكار الذات من اجل تحقيق مستقبل سعيد للجميع ، الأمر الذي بدا مفهوماً ومبرراً في نظر النازيين الذين قالوا انه لا بد من تحسين تلك الجينات من خلال الدقة في اختيار الأحسن والقضاء على جميع الجينات ذات الخصائص السيئة وتصفيتها .

كان النازيون يعتبرون أنفسهم مثاليين منكرين للذات ، قائلين أنهم لم يرتكبوا كل هذه الجرائم في حق المضطهدين ، رغبة في تعذيب الآخرين ، بل من اجل مستقبل للبشرية . في خضم الحرب العالمية الثانية ، ألقى رئيس امن الدولة هاينريش هيملر في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر كلمة أمام قادة أمن الدولة في بلدة يوزين كانت أوضح تعبير عن وحشية هذه «المثالية» : عندها أوضح أن أمن الدولة قد قتل مئات الآلاف من اليهود تنفيذاً لأوامره . لقد دفعوا بهم إلى دور العبادة الخاصة بهم قبل إشعال النار فيها وقتلوا عدداً منهم في الساحات العامة وأجبروا آخرين منهم على التوجه إلى الغابات لحفر قبورهم بأنفسهم أو إلقائهم فوق جثث الموتى في قبور مفتوحة ومن ثم إطلاق النار عليهم . في الوقت الذي كان يلقي كلمته هذه كان جهاز امن الدولة قد بدأ في عملية منتظمة لقتل اليهود بواسطة الغاز .

تحدث هيملر في خطابه هذا بكل وضوح عن «القضاء على الشعب اليهودي» مضيفاً «سيتعلم الناس منكم ما يعني الوقوف أمام مئة جثة ، خمسمائة جثة أو ألف جثة ملقاة على الأرض وأن يتحمل المرء ذلك باستثناء بعض حالات الضعف البشرية وأن يبقى محافظاً على نزاهته ونبيل

أخلاقه . أمر صقل شخصيتنا وزادها صلابة . إنها صفحة جديدة في أمجادنا لم يكتب التاريخ مثلها في الماضي ولن يكتبها في المستقبل . هذا كان المنطق لدى هيملر ، المنطق القائم على أن نقاء السلالة أو العرق يعني مستقبل البشرية وحمايتها من الخطر الذي يهدد بالفناء . هذه «الحقيقة» تبرر في نظر النازية هذا التصرف الحاسم البعيد عن ما أسماه «بالمشاعر العاطفية المزيفة» ويعني الرحمة والإنسانية .

إن التحاليل المخبرية العضوية للكائن البشري تدل اليوم على أنه لا مبرر لوجود كلمة الأعراق البشرية . إن الاختلاف في الجينات الذي يركز إليه القول أن هذا الإنسان ينتمي إلى هذا العرق أو ذاك مثل الاختلاف في الخلايا أو يشكل العينين والأنف هو أقل بكثير من التفاصيل التي تميز الإنسان عن غيره حتى وإن كان من العرق نفسه وتجعله على ما هو عليه مختلفاً عن غيره . حتى أن الاختلاف بين أخ وأخيه هو ملايين الأضعاف عن الاختلاف الجيني ، بين «عرق» وآخر .

إن التمييز العنصري هو أمر في منتهى الغباء وهو كمن يقوم بتصنيف المواد الغذائية انطلاقاً من اللون ، مثلاً القول أن الفلفل الأحمر والنبيد الأحمر والشمندر والفراولة والملفوف الأحمر كلها تنتمي إلى «عرق غذائي» واحد ، أما النبيد الأبيض والملفوف الأبيض والحليب واللبن و صدر الدجاج وما شابه هي من «عرق غذائي ابيض» وهي بالتالي أكثر رقياً من «العرق الأحمر» متجاهلاً الفرق الهائل بين صدر الدجاج وبوظة الحليب بالفانيليا . إن هذا التمييز بين المواد الغذائية انطلاقاً من اللون هو أمر يدعو إلى السخرية تماماً مثل التمييز بين البشر انطلاقاً من الفرق في لون البشرة أو شكل العينين والأنف .

يعود السبب في وجود التمييز العنصري حتى يومنا هذا ، لا إلى أدلة علمية قائمة على تحليل المعطيات الجينية بشكل عقلائي ، بل إلى الحاجة

إلى هذا التمييز إما من أجل تفسير الشعور بالخطر والتهديد اللذين يشعر بهما البعض ، أو لكي يعطي المرء تبريراً لشعوره بالتفوق على الغير .

خلال الحقبة النازية ساد الإيمان بالعنصرية الخرقاء هذه إلى درجة جعلت العديد من الناس يقتنع بإمكانية تحقيق مستقبل مثالي للبشرية من خلال الاختيار السليم لأساليب وعناصر التكاثف في المجتمع . وفي ذلك الوقت أيضا استطاعت العنصرية أن تسدّ الحاجة والرغبة لدى البعض في الشعور بالتفوق وتعطي الحق والمبرر لمشاعر الحقد والكراهية تجاه الآخر خصوصاً ذلك الآخر القريب البعيد وتعطي الحق في تصنيفه في مراتب دنيا . لقد أضفى هتلر شرعية على هذه المشاعر الحاقدة . كانت الكراهية أمراً مقبولاً ، بل أكثر من ذلك إذا كانت هذه الكراهية تندرج في إطار التقدم ، الأمر الذي يفسر اتساع التأييد لهتلر . كان إيمانه بإمكانية بتحقيق عالم أفضل من خلال الارتقاء العرقي من المسلمات في ذلك الوقت ، الأمر الذي أضفى شرعيته عن نظامه الاستبدادي وأضفى عليه طابع الإيثار والتخلي عن الذات . أما في حقيقة الأمر ، فإن هتلر كان أسير هذا المجتمع المنكر لذاته ظاهرياً : باسم النضال في وجه المصالح الخاصة ظهرت مصلحة خاصة استثنائية تتمثل في استغلال المنصب ، الأمر الذي قيل أنه في مصلحة الشعب . ولأن هتلر كان يقول أنه هو من يعرف الحقيقة فقد بدأ يفقد القدرة على التواصل مع الواقع بصورة متزايدة وقام بالقضاء على كل من يخالفه الرأي ، الأمر الذي سار به نحو الفشل الذريع وانتهى بكارثة .

في مضمون مختلف كلياً مع تبريرات تناقض هذا المنطق اعتقد كل من لينين وتروتسكي وستالين ورفاقهم إنهم يعرفون الحقيقة أيضاً ، ولكن ليس عن طريق النقاء العرقي ، بل عن طريق إجراء تغيير في ظروف الإنتاج والملكية الخاصة . من كتابات كارل ماركس تعلموا أن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وبالتالي السيطرة على اليد العاملة سيؤديان حتماً إلى القضاء على

البشرية والى أزمات اقتصادية واضطهاد أكثرية من الناس من قبل أقلية متسلطة ، الأمر الذي برر في نظرهم اللجوء إلى محاربة السلطة التي هي في يد تلك الأقلية وإقامة ديكتاتورية الأكثرية بدلاً عنها في وجه تلك الأقلية . في نظر هؤلاء أيضاً كانت الشفقة بمثابة نقطة ضعف تهدد محاولة إنقاذ البشرية وفق مجرى التاريخ ، «إما الاشتراكية أو الهيمنة» ، كان الشعار الذي رفعوه مستشهدين بالحرب العالمية الأولى وما رافقها من مأس وأهوال . بالتالي لا بأس ، بل لا بدّ من التضحية بذلك الجيل من الناس آنذاك من أجل مستقبل مثالي للبشرية بأكملها . وهكذا طرح الشيوعية نفسها كمجتمع خال من الأنانية وحبّ الذات في أجمل مظاهره .

هكذا نستطيع أن نفهم كيف كان الشيوعيون يرضخون طوعاً لما يجري لهم كإرسالهم مثلاً إلى المعسكرات واستغلالهم حتى الموت أحياناً وهم لا يكفون على الغناء تمجيداً لستالين وإطراء الثناء عليه قائلين إن ما يحدث لهم هو دون علمه ، حتى أن البعض منهم كان يلقي باللوم على نفسه عند تعرّضه للإساءة أو الإدلاء باعترافات لا أساس لها من الصحة بصورة طوعية دون التعرض للتعذيب . لقد كان على قناعة تامة أن ما يحصل يصب في خانة «الصالح العام» : فُي ظل هذه التضحيات الطوعية كانوا واثقين أن القيادة الشيوعيين يعيشون بطريقة تكاد أن تكون شبيهة بحياة المواطنين العاديين أي من كانوا يسمون «الرفاق» . لم يعد هناك ملكية خاصة في مجال وسائل الإنتاج ، أي كان الوضع على حدّ زعمهم يشبه الحالة التي تحدث عنها جون جاك روسو وهي الحالة التي تنتفي فيها المصالح الخاصة بصورة نهائية . وهكذا بدا وكأن صراع الطبقات قد خاض معركته الأخيرة مع القضاء نهائياً على المجتمع الطبقي وقد حلّت المساواة بين الجميع مع فارق واحد وهو أن الشخص

الأحسن هو وحده القادر على اكتشاف القدرات والمهارات لدى الآخرين وبالتالي هو وحده القادر على اختيار من هو مناسب للانضمام إلى النخبة التي هو واحد منها . هكذا كانت الانتخابات تتم من القمة إلى القاعدة . من هو في رأس الهرم يحدد من يجب انتخابه وعلى القاعدة أن تنفذ هذا القرار ، وقد أطلقوا على هذا الأسلوب تسمية «المركزية الديمقراطية» .

من صفوف هؤلاء الذين تمّ انتخابهم يجري اختيار الأفضل ليكون في اللجنة المركزية التي تقوم بدورها باختيار الأفضل ليكون أمينها العام . وكانت اللجنة المركزية وأمينها العام يحصلان من مؤسسات الدولة على أحسن المعلومات من جميع أرجاء البلاد وبالتالي فهما قادران على حدّ زعمها على اتخاذ القرارات الأكثر حكمة ووضع المشاريع التي ستكون في خدمة الشعب بأكمله وذلك في جوّ لا مكان فيه للمصالح الخاصة والأناية والفردية ، وهي أمور تشكل حجر عثرة في طريق المسيرة نحو الازدهار الشامل .

في واقع الأمر فقد برزت المشكلات التي تترافق مع المجتمع الذي يعتمد نكران الذات بصورة حادة خلال الفترة التي سيطرت فيها الشيوعية . كان الخاضعون لسيطرة ستالين يشعرون بالأمن والأمان في ظلّ الشطط والأعمال الوحشية التي كانت من صلب طبيعة ستالين والتي كانت أيضاً نتيجة حتمية للدينامكية الكامنة بطبيعة الحال في هذا النوع من المجتمعات .

كان لا بد من اللجوء إلى المزيد من العنف والوحشية من أجل الحفاظ على السلطة التي أصبح في يد أقلية صغيرة باتت تشكّل ظاهرة تعكس بصورة واضحة إحدى خصائص المجتمعات القائمة على ما يعرف بنكران الذات .

وهكذا تحوّلت الحقيقة المرجوة إلى مظهر من مظاهر استبداد الحزب وأجهزته الأمنية يترافق مع أعمال إرهابية تستهدف أي محاولة لتعديل المسار

خصوصاً إذا جاءت هذه المحاولة من قبل أعضاء في الحزب . وتحولت سيطرة الأكثرية على الأقلية في هكذا مجتمع إلى سلطة شمولية في يد الفئة الحاكمة تمارسها على باقي أفراد المجتمع . وبذلك نرى أن الصواب والحكمة العقلانية في المجتمعات المدعوة إلى نكران الذات قد تحولت إلى ممارسات تعسفية في يد أصحاب السلطة الذين يضعون أنفسهم فوق القوانين واضعين قوانينهم الخاصة بهم استناداً إلى المعايير الحزبية . فالحكمة والعقلانية لا يمكن الوصول إليهما إلاً استناداً إلى المعرفة والمعلومات الصادقة والحرّة التي أصبحت الآن تأتي من العالم الوهمي في رؤوس الفئة الحاكمة أو من المباني على جانبي الشوارع التي يسلكونها في موكبهم ولا تأتي من الأزقة والأحياء الفقيرة البائسة التي يعيش فيها السواد الأعظم من الشعب .

### نتيجة المجتمع القائم على نكران الذات

عندما تورط أبي وأمي في معمة السياسة النازية لم يكونا سوى اثنين من الملايين الذين سقطوا ضحية الإيمان بالحقيقة القائمة على التضحية بالنفس من أجل مستقبل اعتقدوا أنه سيكون مثل جنّات عدن . لقد جرى استغلالهما واستخدامهما مثل مواد بناء بشرية لتشييد عالم جديد ، فكانت أمي بمثابة آلة لإنتاج الأطفال ، وكان أبي جندياً قبل أن يجري تحويله إلى عبد منتج . كان ذلك دون أخذ مشاعرهما وإرادتهما وأحوالهما بعين الاعتبار . لقد كان عليهما أن يضعوا نفسيهما كأفراد في خدمة الحقيقة واليقين .

هذا المجتمع الذي كان من المفروض أن يلتزم الحقيقة من أجل بناء مجتمع مزعوم ، قالوا أنه سيكون البديل الوحيد للواقع السياسي الذي كان سائداً آنذاك ، وسنرى بعد التدقيق في حقيقة الأمر إن كان الطريق الأسرع نحو المجتمع الشمولي .



إلى أي وسيلة سيلجأ ذلك الملاك الذي يحمل اسم إبليس والذي لا يعرف الخير ولا يعرف الشر في سعيه إلى بناء مجتمع جديد؟ الوسيلة القائمة على الإيثار ومحبة الغير حيث يضحّي كل عضو في المجتمع بنفسه من أجل الجميع أثبتت أنها تحقق ما وعدت به . هنا لا بدّ من اللجوء إلى تجربة أخرى ، تجربة بديلة تقوم على الأناية وحبّ الذات .

## العالم الثاني للملاك إبليس :

### المجتمع الأناي

يتكون المجتمع الأناي من شرائح متعددة مستقلة عن بعضها البعض ، من أفراد ، وعائلات ومؤسسات ، ولا يشغلها إلا النجاة بنفسها ونجاحها الشخصي ولا تأبه بالآخرين إلا بما يخدم مصالحها الشخصية . إنه عكس ما تعلمناه جميعاً على أساس أنه الخير . وهذه هي الميزة لدى الملاك إبليس كونه لا يعرف الخطيئة وبذلك لا يعرف الفرق بين الخير والشر . ومعه بالمستطاع تكوين أي مجتمع وبدون تحفظ .

يعتبر آدم سميث اليوم المتنبئ للمجتمع الأناي . في العام ١٧٩٤ كتب في انكلترا كتاباً حول أسباب ثراء الأمم . هذا الكتاب يحوي الكثير عن المصلحة العامة ودعم الفقراء والعدالة . ولكن ، وكما هي الحال مراراً لدى النظريين الكبار ، حصل هو أيضاً على شهرة من خلال أمر لم يكن أساساً موضوع اهتمامه على الإطلاق . واليوم يحتفى به بأنه سيد السياسة اللامحدودة للسوق الحر ، هذه السياسة التي تسود العالم في المرحلة الراهنة بصفتها نظرية التحرر الجديد .

## تركيبة مكونات المجتمع الأناني

الفكرة الأساسية للمجتمع الأناني بسيطة جداً : عندما تنمّي كل وحدة من المجتمع مقدراتها لنفسها فهذا يؤدي إلى تحسن في وضع المجتمع بأكمله . هنا يصح المبدأ القائل : لينج بنفسه من استطاع . كل وحدة تعنى بمقدراتها الذاتية . وكل وحدة تعرف مصطلحها الذاتية بنفسها . وهذا لا يؤدي أبداً إلى مشكلة الرئيس - والمرؤوس السائدة في المجتمع المنكر لذاته لأن كل وحدة هي رئيس ومرؤوس لنفسها في آن معاً . وكل تغييرات في الأمر الواقع يتم استدراكها من قبل المعنيين بها ليعالجوا بدورهم الوضع بالطريقة الأنسب . كل توجيه مركز يُعتبر بنظر المجتمع الأناني منعطفاً غير ضروري على الإطلاق ومضر جداً .

عوضاً عن ذلك تتخصص كل وحدة بذاتها في المجال الذي تبرع به . توزيع العمل هذا يؤدي إلى مضاعفة الإنتاج بشكل مثالي ويوجد للمنتج الفرص الأفضل للتبادل المدر للأرباح . وفي النهاية - تقول النظرية - يحقق المجتمع الأناني بهذه الطريقة بشكل أكثر فعالية وثقة الهدف الذي يدعي المجتمع المنكر لذاته بأنه يصبو إليه : ألا وهو الأفضل للجميع . صيغة آدم سميث التي أصبحت كلاسيكية تقول : وكأنها في انسجام مستقر (مبرمج مسبقاً) من يد حفيّة تنتج المصلحة الذاتية المنفعة الكبرى لأكثر عدد ممكن .

كان ملزماً على الملاك إبليس بناء مجتمعنا النموذجي الصغير بحيث أن كل شخص من أعضائه لا يفكر سوى برغباته الشخصية وقبل كل شيء سوى بنجاته بنفسه . حشد كهذا من الأنانيين ذوي الاهتمامات المتنوعة كان ليملك منفعة أخرى أمام المجتمع المنكر لذاته فهو يكون متماسكاً ، وهذا يعني أنه يستطيع مقاومة صدمات متعددة ومختلفة لأنه قد تنجو منها بضعة وحدات على الأقل . فعوضاً عن إستراتيجية واحدة كما هي الحال في

المجتمع المنكر لذاته يتمتع المجتمع الأناني باستراتيجيات كثيرة لأن كل وحدة فيه تتبع إستراتيجيتها الخاصة بها . بعض هذه الاستراتيجيات تكون خاطئة وبذلك تخفق الوحدات التي تتبّعها . إلا أن هلاك بعض الوحدات لا يشكل خطراً على بقاء المجتمع ككل . بينما يتشكل خطر على الجميع في المجتمع المنكر لذاته إذا كانت إستراتيجيته الشاملة خاطئة .

وبذلك يعطي الملاك إبليس لدى مارك توين درساً عن المعرفة الفاسدة الأولى حول المجتمع : الوحدات الأنانية ، والصغيرة ، والتي تعنى فقط بمصلحتها وبنجاتها تقدم للمجتمع الفرص الأكثر للنجاح . وهذا يتضح تماماً إذا تركنا العالم التطبيقي الأناني الصغير يمر لبضعة أجيال واستعرضنا تاريخه : نجد بين كل أشكال المجتمعات أن المجتمع التسويقي الأناني هو الأكثر نجاحاً حتى الآن . فهو نجا ودام وقتاً أطول من المجتمعات الأخرى كلها وتفوق عليها ، وسيطر على العالم وها هو اليوم المتفوق على كل أشكال المجتمعات كونه يتبع سياسة السوق الحر .

من الناحية النظرية فهو يفي بمعايير العدالة بشكل تام . فالكل يطمح إلى مكاسبه وباستطاعة الجميع التمتع بأمل الحصول على فرص النجاح ، وبذلك يوافقون على التركيبة حتى ولو أنهم لا يعرفون مسبقاً ما إذا كان قرارهم يؤدي إلى النجاح أم إلى الفشل .

### من مساوئ المجتمع الأناني

مبدأ متى . المجتمع الأناني أيضاً يحمل في طياته مثل المجتمع المنكر لذاته ميولاً للديكتاتورية ، وبذلك فهو مهدد بأن يناقض نفسه بنفسه . فالديكتاتورية في هذا المجتمع تسمى مونوبول . ففي طموحه من أجل مصالحه لا بد من أن تحقق بعض الوحدات نجاحاً أكثر من غيرها . وبذلك تحظى

بمؤهلات أفضل للجولة القادمة في منافستهم مع الأنانيين ، ما يرفع فرص تفوقهم مجدداً على الوحدات الأخرى في الجولات التالية . هذا لأن المجتمع الأناني يعمل وفق المبدأ المأخوذ من إنجيل متى ٢٥ ، ٢٩ : «من كان له شيء ، يزداد فيفيض» .

طبعاً تتكون دائماً وحدات جديدة تجلب إلى السوق إحدى المنتجات الناجحة . وبعض هذه الوحدات تفلح في التفوق على الشركات والمؤسسات مثل Bill Gate حديثاً ومؤسسته Microsoft . إلا أنهم - وهذا المثال بالذات يظهر ذلك - يملكون في صميمهم الميول إلى المونوبول ، إلى الديكتاتورية ، على الأقل في ما يتعلق بمجالهم . إذا نجحت أفراد من هذه الوحدات بتحقيق المونوبول (الاحتكار) لعدة مجالات ، عندها يصعب على السياسة محاربتها . فنجاح أية حكومة أو فشلها يصبح تحت أمره الممولين الماليين لهذه الوحدات الذين يدعمونها أو يسقطونها .

كما وأن السلبيات نفسها بالنسبة للمجتمع المنكر لذاته تصح أيضاً للمجتمع الأناني . فوحداته أيضاً تحصل على معلومات محدودة عن الواقع ، وتميل لتصفية المعارضة الداخلية والخارجية ، وتصبح عقبة في المجتمع جراء أنانيتهما الجارية واللامحدودة . فهي ترهقه وتفقره دون أن تعطيه . بالاحتكار يخسر المجتمع الأناني أهم إيجابياته : ألا وهو التماسك . فهو يصبح محدداً من استراتيجيات قليلة إذا لم نقل من واحدة فقط . قد يكون مؤهلاً أن يفرض نفسه من خلال قوته المادية ، لكن هذه القوة بالذات تسلبه المرونة .

رغم هذا الخطر حقق المجتمع الأناني دائماً ومجدداً نجاحاً باهراً . فبالكاد يعرف أحد اليوم محتكري القرنين التاسع عشر والعشرين الكبار ، أمثال Krupp أو Carnegie . صناعة الفحم والحديد الصلب تراجعت أمام الكيمياء وهذه الأخرى بدورها تراجعت أمام التكنولوجيا المعلوماتية .

المحتكرون القدامى اختفوا وزالوا وحل مكانهم حكام جدد للأسواق . إلى حد الآن تغلب المجتمع الأناني على ميوله الذاتي لثبات الاحتكار .

مبدأ «فقط من يبيع يستطيع الشراء» . هذا الفوز اقتضى وما زال يقتضي ضحايا كثر مجهولين ، بالكاد يتأسف عليهم أو يمدحهم أحدهم كما هو الحال مع ضحايا المجتمع المنكر لذاته ، كونهم يُعتبرون وفق قواعد المجتمع الأناني خاسرين وفاشلين .

مبدأ «لينج بنفسه من استطاع ذلك» يسري في السوق . كل وحدة تعرض شيئاً ما للبيع : إما المنتج أو اليد العاملة . فقط بهذا الأسلوب تجني المال اللازم لشراء كل ما يلزمها للنجاة ومعاودة الإنتاج .

فقط من يبيع يستطيع الشراء . هذا هو المبدأ الأساسي لسياسة السوق الحر والمجتمع الأناني . بينما يتم تقييم الحاجات الماسة وأخذها بعين الاعتبار من الناحية السياسية في المجتمع المنكر لذاته ، يكون القرار في المجتمع الأناني فقط في المال وفي القوة الشرائية ، أي من تلك الحاجات تؤمن وأيها لا .

في المجتمعات الصناعية الحالية تصل حال من ٥ إلى ٢٠ بالمائة من الناس في المجتمع إلى وضع مستمر يتعذر عليهم فيه بيع أي شيء . هذا الوضع يصيب المعاقين ، خاصة المختلين عقلياً منهم ، المسنين ، قليلي الكفاءة الذين تم استبعادهم عن سوق العمل قبل بلوغهم سن التقاعد ، النساء ، خاصة أمهات الأطفال بلا معيل ، اللواتي لا يتم قبولهن في سوق العمل . كل هؤلاء يتضورون جوعاً دون خدمات التضامن من المجتمع ، والأمر كذلك في أنحاء كثيرة من العالم .

خارج أراضي الدول الصناعية هناك العديد من مئات الملايين الذين لا يملكون شيئاً يعرضونه للبيع . وإذا حالفهم «الحظ» يعيشون بما تقدمه لهم الأرض بعيداً عن سياسة السوق الحر . ولكن غالباً تكون الأرض مجدبة أو

جافة أو مالحة بسبب الري الخاطئ . والكثيرون مجبرون على المعيشة من محصولها الشاق . وكل الأنواع الجديدة المثمرة المعالَجة جينياً والأسمدة الكيميائية ومبيدات الحشرات تكلف المال . وهكذا تؤدي الحالة التي لا تطاق في الريف بسبب الجوع ، والوهن الصحي ، والنقص في النمو ، والأوبئة إلى أن يبيع الأهل أولادهم وإلى أعمال الرق المدين ، من أجل تأمين الجزء الأكثر إلحاحاً لأحد أبنائهم على الأقل .

عدد النازحين من الريف إلى الأحياء الفقيرة في المدن بازياد مستمر حيث يبحثون بين النفايات ، يتسولون ، ويتنافسون لقاء أجر ضئيل على لعمل القليل الموجود . وفق ما ورد في التقويم السنوي للعام ٢٠٠٣ في البرنامج الألماني DTV وصل عدد الذين عانوا من سوء التغذية في عام ٢٠٠١ ما مجموعه ٧٧٧ مليون نسمة بينهم ١٥٠ مليون طفل . في ما بعد يلقي سنوياً الملايين من الأطفال والبالغين حتفهم جراء الجوع والأمراض الممكن تفاديها . في العام ٢٠٠١ توفي حسب تقديرات الأمم المتحدة ١٠,٨ مليون طفل تحت سن الخمسة أعوام فقط بسبب سوء التغذية والأمراض الناتجة عنها . إذاً المجتمع الأناني يتسبب في خلال بضعة أعوام بالبؤس والضحايا وبنسبة أعلى مما يتسبب به المجتمع المنكر لذاته في قرن كامل .

لكن المجتمع الأناني لا يُظهر مع ذلك أي ظلم أو وحشية . فهو لا يعذب ولا يجمع الناس وينقلهم في عربات لنقل الحيوانات وينفيهم في معسكرات ومناطق معزولة ، ولا يسوقهم في مسيرات مميتة عبر البلاد ، ولا يرسل بهم إلى معسكرات العمل في سيبيريا ليلقوا هناك حتفهم ، أو في حجرات الغاز . يتسبب المجتمع الأناني كل عام بملايين الضحايا بكل بساطة عبر القانون القائل : من ليس بمقدوره بيع شيء ، لا يستطيع شراء شيء .

## حساب مبدئي

إنها حجة معنوية بالكامل لا تؤثر ولا تهتم الملاك إبليس لأنه لا يعرف لا الخير ولا الشر . كل ما يهمله هو : هل يعمل المجتمع كما يجب؟ هل يؤمن وجوده وبقاءه حتى في عالم سريع التغيرات؟ هل يقبل به أعضاؤه ليتأمن بقاءه؟ كل هذا ينطبق على المجتمع الأناني بشكل واضح حسب ما نعرفه . فهو نجا من كل الحروب الحارة والباردة ، ومن كل الأزمات الاقتصادية ، ومن شتى أنواع حركات الإضراب ، ومن كل الأزمات الأخرى خلال بضعة مئات السنين حول صراع الطبقات ، منتصراً وفائزاً . لقد تنبأ الشيوعيون مراراً بزوالهم ، وحصل ذلك بالفعل .

لقد أنتج المجتمع الأناني للكثيرين رخاء غير معهود . الأكثر فقراً وبؤساً في ألمانيا يتمتعون بمستوى معيشي لم يقدم على تصوره ولا حتى في الحلم أكبر أثرياء القرون الوسطى ، لنقل القرن الثاني عشر ، ولا حتى الملوك : نوافذ زجاجية ، تدفئة مركزية ، براد ، تلفاز ، راديو ، موسيقى ، وفاكهة طازجة في كل أوقات النهار وفي كل الفصول . فأمرء القرون كانوا يعيشون في قلاع باردة تعصف بها باستمرار التيارات الهوائية ، وكانوا يعانون في فصل الشتاء من داء الإسقربوط بسبب النقص في الفيتامينات ، وللترفيه لم يكن عندهم سوى موسيقيين ومهرجين .

أزال المجتمع الأناني - على غرار غيره من المجتمعات - الفوارق ، وحيث يتمتع الناس بالقدرة المالية على الدفع ، يخلق فرصاً جديدة للتوسع لم تُعرف من قبل . المجتمع الأناني يريد البيع فقط . المال والمنفعة هما شيئان منصفان تابعان للديمقراطية . فلا يهمله المنشأ ولا لون البشرة ولا العقيدة ولا الأجناس . من يدفع يستلم ويتزود . أما المشكلة ، يقول الملاك إبليس ، هي ليست المجتمع الأناني . إنها تكمن في عدم انتشاره في العالم بشكل كاف . فالملايين الكثر

الذين يلاقون حتفهم جوعاً لم يكن المجتمع الأناني سبباً لذلك ، بل قدرتهم الضعيفة والغير كافية للسعي .

## حدود المجتمع الأناني

إلا أنه هناك مشكلة أخرى ليست فقط معنوية ، وعلى الملاك إبليس حلها بواسطة مجتمعه الأناني : في كل المجتمعات هناك مسائل ومجالات حياتية لا يديرها السوق . إحداها على سبيل المثال : الحب .

تدعي رجالات (إعلام سياسة السوق الحر وسيلة لحل كل المسائل) بأن الحب أيضاً يتم الحسم به وفق مبدأ العرض والطلب . هم يرتثون بأن ما لا يكلف شيئاً لا قيمة له . وطبعاً يكلف الحب شيئاً : الوقت ، الأعصاب ، الهدايا ، وآلام القلب . إلا أن الحب يتسم بأنه لا يحسب خدمة أمام خدمة مقابلة لها . فهو يعني الولاء . وهو لا ينمو من حسابات وغير قابل للشراء ، وحتى لا يمكن توقعه . وهذا يصح سواء في حب الأهل كما في الحب بين الأجناس الذي من دونه ما من وجود للمجتمع .

هذه هي الحال أيضاً في شبكة الصداقة والقرابة . في هذه الشبكة نجد نسيجاً بعيداً عن السوق التجاري مكوناً من الدعم والمودة والنشاطات المشتركة . ونحن ليس بمقدورنا أن ننمو دون هذا النسيج من العلاقات وما باستطاعتنا العيش معنوياً برزانه واعتدال . دون هذا المجال الذي نسميه المجتمع المدني ، لأننا لا نلحقه بالاقتصاد ولا بالدولة أو السياسة ، لا ينجو مجتمعنا . ذلك لأن الأولاد والصداقات ليست منتجات تسويقية ولا يستطيعون النجاة فقط تحت شروط أنانية .

أكثر من ذلك : ما يصح للفرد يصح أيضاً للمجتمع بأكمله . فهو لا يستمر دون التضامن . إذ إن نمو الأولاد مندمجين بالمجتمع يتطلب منه



خدمات مشتركة غير أنانية للقدرة على تنظيم التربية والمدارس وكذلك حياة مشتركة محمية وحامية . فالأمراض التي تصيب الجميع ، والحوادث ، والحرائق والسرقات هي مخاطر لا يستطيع الفرد تحمل عبئها وحده ، بل من خلال توزيع مشترك على الكثيرين .

إضافة إلى ذلك يتوجب على المجتمع ككل أن يحمي نفسه من مخاطر مشتركة : كوارث ، أوبئة ، وحروب . عليه تطوير نظام قانوني ذو أعضاء مستقلين ونزهاء للأحكام القانونية . عليه إظهار قوات الشرطة لتطبيق أحكام القانون ولتنفيذ الأحكام القضائية . أما إذا كان رجال الشرطة والقضاء قابلين للرشوة عندها ينهار السوق ، لأنه بحاجة إلى ضمانات الملكية ، وإلى صلاحية العقود ، وإلى الطمأنينة ، وإلى ضمانات استمرارته في المساومة بالأسعار وبشروط العقود .

في الكثير من الدول النامية لا تملك المجتمعات المنظمة أنانياً القدرة على تقديم الخدمات المشتركة اللازمة ، مثلاً تأمين الطرقات ، والمدارس ، والمستشفيات ، ومنشآت الأبحاث ، أو لتزويد الناس بمياه الشرب النظيفة ، وللتخلص من النفايات والصرف الصحي بشكل سليم . إنها أمثلة بسيطة تظهر الفشل المتكرر للمجتمع الأناني .

بشكله الأصلي لئس بإمكان المجتمع الأناني المحافظة على بقائه . وهذا هو الاعتراض الذي يمكن أن يوقع أثراً في الملاك إبليس . فالمجتمع الأناني يتسبب بالبؤس والموت أكثر من أية ديكتاتورية ، وهنا نذكر - ليس كالحجة المعنوية - معايير النجاح عند المجتمعات . إذا لم تكن قادرة على النجاة ، يجب تبديلها . وعلى الملاك إبليس تغيير بناء هيكلية مجتمعنا الأناني الصغير .

## المجتمع المثالي : مزيج من المجتمع الناكر لذاته

### والمجتمع الأناني

نستطيع الاستمرار بالمبدأ الأساسي ، ألا وهو التعبير الأناني «لينج بنفسه من استطاع» ، في أغلب مجالات المجتمع ، لأنه يعمل بشكل أفضل ويقدم لأغلب أعضاء المجتمع تماماً ما يحتاجونه وأدق من الدولة التي تصمم باهتمام ورعاية . إلا أن نظام سياسة السوق الحر يحتاج إلى متممات حيث لا يقوم بمهامه أو لا يستطيع تقديم الخدمات الضرورية كاملة ، هذه المتممات تقع في مبادئ غير تابعة للسياسة التسويقية والهيئات التنظيمية .

أما إقرار ، متى لا يستطيع نظام السوق الحر القيام بمهامه أو تقديم الخدمات الضرورية كاملة ، فهو واجب السياسة . وأيضاً يصب في المجال السياسي الإقرار حول ما يجب تقديمه لإتمام سياسة السوق الحر بالكامل وكيفية ذلك . لأن الجهاز الذي يأتي بالخدمات الغير متعلقة بسياسة السوق الحر ، هو الجهاز الذي تراقبه السياسة ، ألا وهو الدولة . فالدولة تتم سياسة السوق بأبعادها الاجتماعية وتجعلها اجتماعية من خلال إخضاعها لمبادئ محبة الغير . النتيجة هي السياسة الاجتماعية للسوق الحر .

تعتبر كلمة «اجتماعي» في اللغة العامية شبيهة لمعنى الإحسان والمساعدة . إلا أنها لا تعني سوى الاجتماعي المشترك . فسياسة السوق الحر الاجتماعية ليست سياسة الإحسان والصدقة ، بل سياسة اقتصادية اجتماعية التوجه تعنى في الشأن الاقتصادي من أجل المجتمع ككل وتتدخل للتعديل حيث لا تجني سياسة السوق الحر النتائج المرغوبة . لا يتوجب أبداً على العنصر الاجتماعي التدخل في شؤون سياسة السوق الحر أو أن تتطور باتجاه الاقتصاد التخطيطي الموجه ، وإلا فهو يذبح البقرة التي يعيش من حليبها - هذا الحليب هو الضرائب .

كل مجتمع يحوي مجالات حياتية ليست جزءاً من الاقتصاد وأيضاً ليست جزءاً من السياسة ودولتها . فإذا لم يمارس الناس عملاً أو سياسة فهم يتحركون ضمن ما يسمى المجتمع المدني ، في محيطهم الخاص ، في العائلة والأصدقاء ، في الأندية وأيضاً في العلن . هناك لا تسيطر قوانين العرض والطلب أو القواعد السياسية ، بل المعايير الثقافية التي تحدد الصحيح والخطأ معنوياً ، وما يتناسب والميول الجيدة ، وما هو قيم فنياً أو ما يؤثر على حياة جيدة وناجحة .

كانت النتيجة الأولى في لعبة الملاك إبليس المعنوية أن المصلحة الذاتية هي المستشار الأفضل في تشكيل المجتمع ، أفضل من حب الغير والتفاني لأجل المصلحة العامة المزعومة . النتيجة الثانية هي أن المصلحة الذاتية وحدها لا تثمر . لا يصح الأمر بدون نشاطات مشتركة وتواصل خارج نطاق السوق . ولا يصح الأمر بدون المجتمع المدني ، ولا يصح الأمر بدون جهات تدخل قضائية مختصة تعنى بحلول مسائل مشتركة خارج نطاق السوق . إنها السياسة . وهذا يعني : بدون سياسة لا تصح الأمور .

وهنا يطرح السؤال حول تركيبة مجتمع مثالي غير ذلك في بداية هذا الفصل . لأننا نعلم الآن بأنه يجب أن يعمل بصورة رئيضية وفق مبدأ «لينج بنفسه من استطاع» ، يتممه مجال مشترك تشكله السياسة . فالسؤال المطروح الآن لم يعد «أي مجتمع هو الأفضل؟» بل «ما هي السياسة الأفضل؟» . لأن عليها موازنة النتائج الغير مرغوبة في السياسة الاقتصادية التي تعمل وفق «لينج بنفسه من استطاع» . وبذلك تقرر حول جودة المجتمع .

وهنا يطرح السؤال مجدداً حول الحقيقة . لأنه كما في المجتمع الناكر لذاته تكون السياسة الأفضل بالتأكيد ، تلك التي تتوجه نحو الحقيقة ونحو المصلحة العامة التي تحدها هي بنفسها .

## الفصل الثاني

### مليارات النماذج عن سيرة حياة كولومبوس - أو: العلاقة بين السياسة والحقيقة

نعود إلى قصة مارك توين حول الغرباء الغامضين : الملاك إبليس تصادق مع الفتيان في القرية النمساوية من القرون الوسطى وأراد أن يقدم لهم خدمة . عرض عليهم تغيير حياة أحد أعز أصدقائهم نحو الأفضل . وافق الفتيان على ذلك مبتهجين شاكرين وبدأوا بتصور صديقهم العالي الشأن في المستقبل ، قد يصبح جنرالاً أو وزيراً .

ثم شرح لهم الملاك إبليس خطته في تغيير مجرى حياة صديقهم نيكولاس : « بعد دقيقتين ونصف سيصحو نيكولاس من نومه وسيلاحظ أن المطر يدخل من خلال النافذة المفتوحة . في مجرى حياته حتى الآن تحدد مسبقاً بأنه سيتقلب في سريره وسيغفو مجدداً . إلا أنني حددت بأنه سوف ينهض ويغلق النافذة . جراء هذا الحدث الصغير سوف يتغير مجرى حياته بالكامل . فهو سينام في صباح اليوم التالي فترة دقيقتين أطول مما حدد له خلال تسلسل ظروف حياته حتى حينها ، وجراء ذلك لن تبقى حلقات هذا التسلسل صحيحة» . ويتابع الملاك إبليس : «ولهذا السبب سيصل نيكولاس بعد اثني عشر يوماً إلى إحدى البحيرات مع تأخير يقارب بضعة ثوان حيث يلاحظ أن في الماء فتاة صغيرة على وشك الغرق وتستنجد . نيكولاس سيقفز في الماء ويسبح نحو الفتاة لإنقاذها . لولا ثواني التأخير لكان استطاع إنقاذها

وهي لا تزال في المنطقة غير العميقة . وهكذا ستسحب الأعماق الفتاة وسيغرق الاثنان معاً .

«أين الحسنات في ذلك؟» ، علا احتجاج الرفاق وطلبوا الرجاء من الملاك إبليس أن يترك كل شيء على ما هو .

بدوره أوضح لهم : «لو أن نيكولاس حضر إلى البحيرة قبلها بقليل لكان أنقذ الفتاة بالفعل إلا أنه كان سيصاب بالتهاب بالرئة ثم بمرض خطير آخر بسبب وضعه الصحي الضعيف ما يجبره بالبقاء في السرير مقعداً وضريراً لفترة ستة وأربعين عاماً راجياً خلالها يوماً موتة السريع . والفتاة التي أنقذها كانت ستنتهي حياتها المليئة بالبؤس كقاتلة على طاولة الإعدام . وهكذا أسدي لكليهما بموتهما المبكر خدمة كبيرة!» . وافق الفتيان بذهول على تصميم الملاك إبليس ورجوه بوفاء وعده «بالتحسن» المميت .

### صعوبات في مواجهة المستقبل

ما علاقة هذه القصة بالسؤال : «ما هي السياسة الأمثل؟» ، هل انتهت حيث انتهى الفصل السابق؟

حسب المنطق في الفصل السابق يجب على السياسة تعديل نواقص السوق الاقتصادية . فهي تكتشف النقص الراهن وتتخذ التدابير لمنع ظهوره في المستقبل . وبناء عليه فإن السياسة تعالج المستقبل وبالتالي فإن الرؤية المسبقة للمستقبل أمر ذو أهمية بالغة جداً . قصة الملاك إبليس والحياة «الأفضل» لنيكولاس تتحدث عن الصعوبات في الرؤية المسبقة للمستقبل على طريقة مارك توين غير الاعتيادية . وبهذه القصة نكون في صلب موضوع السياسة .

كيف يغير الملاك إبليس حياة شخصين بكاملها؟ من خلال فتح أو

إغلاق نافذة يدخل منها المطر . نيكولاس ، الذي كان سيتابع نومه لولا ذلك ، يستفيق على صوت المطر وينهض الآن ليغلق النافذة . هذه الثواني القليلة ، هذا الجزء الصغير التافه يحصل صدفة ويرجع أداء الأحداث وترابطها في المستقبل وينتج سلسلة جديدة من الأسباب والتأثيرات .

يشرح مارك توين هذا الأمر عبر الملاك إبليس كما يلي : « الحياة ليست محددة مسبقاً ربانياً ، بل هي كذلك من خلال تفاعل الأحداث والبيئة . الحدث الأول يحدد الحدث التالي والأحداث الأخرى التي تليه . لكن ، ماذا لو أن أحد هذه الأحداث لم يجبر مع أحد الأشخاص ، حتى ولو كان هذا الحدث دون أهمية على الإطلاق؟ لنقل على سبيل المثال أنه كان محدداً له أن يذهب إلى بئر ماء في وقت معين وفي جزء محدد من الثانية ، ولم يفعل ذلك ، فبذلك يتغير مجرى حياته كلياً ابتداءً من هذه اللحظة ، حتى توافيه المنية ولكانت حياته غير ما حددته الأحداث الأولى فيها عندما كان طفلاً . كان من الممكن أن يتوج ملكاً لو أنه خطا باتجاه البئر عوضاً عن أن يصبح الآن متسولاً .

أو لنبحث في أمر كولومبوس : لو أنه لم يقيم بعمل واحد من أعماله الكثيرة والمتعددة ، والتي صممت وحددت خلال أحداث طفولته ، لكان انتهى ككاهن فقير في أحد الأمكنة في إيطاليا ، دون رؤية القارة الأمريكية على الإطلاق ، ولكان اكتشاف هذه الأخيرة قد تم بتأخير يبلغ مئتي عام . لقد تفحصت بإمعان المليارات المحتملة لمجريات حياة كولومبوس ، ولم يرد ذكر أميركا سوى في واحدة منها فقط . تلقي مليارات مجريات حياة كولومبوس الضوء بوضوح جلي على الصعوبات في معترك السياسة . تحاول السياسة بناء المستقبل . وإذا كان المستقبل يتعلق بشدة بتفاعل مجريات صغيرة وسخيفة ، عندئذ تعتبر السياسة مهمة صعبة . يتوجب علينا إذاً دراسة إلى أي مدى يصح إعطاء الملاك إبليس الحق .

أيضاً توقعاته ليست صحيحة . حتى لو أن نيكولاس نام لمدة أطول من المعتاد بسبب إغلاقه النافذة فهذا لا يعني على الإطلاق بأنه سينام لمدة أطول في اليوم التالي . من المحتمل جداً بأنه ليس لإغلاق النافذة ليلاً قبل اثني عشرة يوماً أية تأثيرات على المجرى الزمني للأحداث نهار حادث العرق . فلو وقعت الفتاة في الماء في اليوم التالي مباشرة بعد إغلاق النافذة ليلاً وحضر نيكولاس ، لكانت أدلة مارك توين معقولة .

إذا تذكرت صباحاً في طريقي إلى العمل بأنني نسيت المفتاح في باب المنزل ولهذا اضطررت للعودة لجلبه وعدت أنطلق إلى عملي متأخراً على غير المعتاد نتيجة ذلك ، فهذا الأمر لا يؤثر عادة على مجرى حياتي . هذا الأمر يشبه الرفرفة الشهيرة لجوانح الفراشة . فتلك لا تسبب عادة إلا لفحة هواء نادراً ما نشعر بها . لكن في الوضع الحرج ، إذا كانت الأوضاع على شفير الهاوية ، فقد تسبب رفرفة أجنحة الفراشة بعيداً في إحدى القارات الأخرى بإعصار .

إذا ألقينا نظرة على الماضي تبدو الحياة على أساس أنها الشيء الوحيد المعقول والصائب وما من شيء أبعد من فكرة وجود عدد مبهم من سير محتملة للحياة ومتنوعة للغاية . كما وأنه غير منطقي أن سير الحياة هذه تنتج من تأجيلات قصيرة جداً وغير جوهرية إطلاقاً خلال المجرى الزمني لأحداث تافهة . إلا أن حياة الإنسان المعاصر مليئة بالأوضاع الحرجة . فكل رحلة في السيارة ، أو بالطائرة أو القطار قد تؤدي إلى حادث يغير مجريات الحياة ، والذي إما أن تقع فيه من خلال تسلسل مشؤوم لأحداث زمنية وصدف ضئيلة أو ننجو منه محظوظين . غالباً جداً تقع السياسة في أوضاع حرجة : مختلون عقلياً يعتدون على أشخاص بارزين ، أحصام سياسيون يبتدعون مكائد ، أحداث غير متوقعة ، مثلاً الطوفان الذي يؤثر على نتائج الانتخابات

أو تصرفات القوى الاجتماعية التي تدعم التصرف الهادف أو تضعفه كلياً .  
مثال على ذلك : في مساء الثامن من ت ٢ من عام ١٩٢٣ - وفي قمة مشكلة تدني قيمة النقد المالي جراء خسارة الحرب العالمية الأولى (فقد وصل سعر رغيف الخبز آنذاك إلى بضعة ملايين مارك ألماني) وفي خضم الفوضى في السياسة الداخلية والخارجية (جرى حينها بضعة تمردات من قبل الشيوعيين و انقلابات من قبل اليمينيين ، والفرنسيون اجتاحتها منطقة الرور) - أعلن أدولف هتلر أمام حشد شعبي كبير مقابل معمل لإنتاج البيرة في ميونيخ عن عزل وإقالة الحكومة البافارية ، وحكومة الرايخ ورئيس الجمهورية . وفي اليوم التالي ، في ٩ ت ٢ ، وهو تاريخ مهم في التاريخ الألماني ابتدع هتلر وأتباعه وبعض الأشخاص البارزين في أحداث الحرب العالمية الأولى عملية «الزحف نحو برلين» . وبذلك أخذ الفاشيون الإيطاليون ، الذين أخذوا السلطة في إيطاليا بالقوة من خلال عملياتهم «الزحف نحو روما» ، من هتلر مثلاً لهم . ولكن بعد بضعة مئات من الأمتار ، وتحديداً في ساحة فيلد هرين ، تصدى لحشد هتلر الزاحف فرقة من الشرطة الموالية للحكومة التي أمرت الانقلابيين بالاستسلام وإلا سيطلقون النار . وعندما تابع هتلر ورجاله التحرك أطلقت الشرطة النار باتجاههم وقتلت منهم ستة عشر رجلاً . كان من الممكن أن يكون هتلر بين المصابين . فالرصاصة أخطأته بسنتمتر واحد فقط بسبب إصابة الرجل الذي كان يسير بجانبه وسحبه هتلر معه أثناء وقوعه أرضاً . فلو أن هتلر أصيب عندها لكانت نشرت الصحف خبر «موته المفجع» وكان التاريخ أخذ منحى آخر وتأثر فقط بسبب فارق بضعة مليمترات لطلقة نارية . إنه تغيير صغير وتافه مثل قصة النافذة المفتوحة في قصة مارك توين .

هذا الحدث الذي جرى مع هتلر بالفعل ، والذي يظهر لنا وكأنه إرادة الطبيعة ، ليس إلا احتمالاً من مليارات احتمالات مجريات التاريخ ، كما هو



الحال مع مليارات الصيغ لسيرة حياة كريستوف كولومبوس . لتأمل إحدى الاحتمالات المعقولة : تؤدي وفاة هتلر إلى استسلام اليساريين والانقلابيين اليمينيين ما يؤدي إلى إعادة ثبات جمهورية فايمار (ألمانيا قبل سيطرة هتلر عليها) . وهذه بدورها تلاقي دعماً واسعاً عند السكان وحتى أن الأحزاب المتشددة توافق على قيام الجمهورية وتشكيله البرلمان . في ما يخص السياسة الخارجية توجه جمهورية فايمار ، مدعومة من إنكلترا وفرنسا ، أنظارها نحو إيطاليا الفاشية وتنجح بتحرير الولايات المتحدة الأميركية من سياستها الانعزالية ، وبكسبها في عصبه الأمم لتحقيق السياسة المناهضة للفاشية . وبذلك يتم عزل ايطاليا الفاشية عن العالم بواسطة المقاطعات التجارية وفرض العقوبات عليها وسرعان ما تجد نفسها مضطرة إلى أن تقدم استعدادها على اتباع سياسة أقل راديكالية . وهكذا تخسر الحركات الفاشية الأخرى في أوروبا مصداقيتها وتصبح أحزاب صغيرة دون أهمية تذكر . جراء ذلك ينهك الاتحاد السوفيتي بمشاكله الداخلية ويقبل نفوذه بغياب خطر الفاشية . وهنا تكسب الاشتراكية أهمية في كل أنحاء أوروبا ، خاصة لأنها تتغلب على الأزمة الاقتصادية العالمية ، بشكل أفضل من الدول التي تديرها حكومات شعبية ، بالتناسب مع سياسة روزفلت في الولايات المتحدة في ما يتعلق بتأمين فرص العمل . وهكذا ينتشر الفكر الديمقراطي الاشتراكي في كل أنحاء العالم في الأربعينات .

هذه الإمكانيات - والتي تعتبر رائعة اليوم - كان لها الاحتمال ذاته لأن تصبح واقعاً حقيقياً مثل ما نسميه اليوم تاريخاً . كل عناصر هذا البناء الفكري كانت موجودة . فهي كانت ستحصل لو أن الترويج المناهض للديمقراطية من قبل اليمينيين المتطرفين حول ضرب هتلر لم يؤدي إلى جر الأحزاب المحافظة إلى اليمين أكثر فأكثر ضد جمهورية فايمار . فالظروف كانت

أثناءها على شفير الهاوية . فقد كان من المحتمل أن يحظى هتلر بلقب شهيد الحركة الوطنية وأن يحل مكانه خلف أكثر تعصباً وفعالية وكاريزماتي يضع المحافظين تحت الضغط بشكل تحظى من خلاله الحركة النازية في عام ١٩٣١ بالأكثرية البرلمانية . وحتى لو كان الأمر كذلك ، فالتاريخ كان سيأخذ مجرى آخر غير الذي نعرفه حالياً . من الممكن أن يأخذ التاريخ مجرى آخر بسبب تغييرات بسيطة أو حدث صغير عن طريق الصدفة ، كالنافذة في قصة مارك توين ، وهذا يحدث خاصة إذا كانت الأمور على شفير الهاوية .

قد لا يبلغ عدد الاحتمالات المعقولة في حياة كولومبوس جراء هذه التغييرات البسيطة بضعة مليارات ، لكنه يصل إلى آلاف كثيرة . غالباً كانت رحلته كما نعلم على شفير الهاوية وبذلك لم يكن بالإمكان ذكر أميركا في الكثير من هذه الآلاف .

### حرية الإرادة

يصبح هذا الأمر أصعب من خلال حرية إرادتنا . فالصدفة ليست وحدها التي تلعب دورها في فوضى تشابك المسببات والنتائج كما هو الحال مع نيكولاس أو الطليقة النارية . فنحن نملك الخيار الحر وباستطاعتنا أن نتخذ قراراً لصالح أو ضد فعل ما .

تظهر اليوم أبحاث الدماغ أن هناك شكاً لا لبس فيه في إرادتنا الحرة : إذا رجا أحدهم شخصاً في تجربة ، أن يقرر أي إصبع يحرك ، ويتم أثناءها قياس إشارات الدماغ ، هنا يظهر الجزء المسؤول عن اتخاذ القرار نشاطاً يؤدي إلى تحريك الإصبع ، وهذا النشاط تتم ملاحظته مباشرة بعد الجزء الدماغية . وهنا تقول أبحاث الدماغ بأنه يوهمنا مخادعاً بأن قرارنا حر . شيء ما بداخلنا اتخذ قراره بالأمر قبل حصوله بكثير . بالنسبة لنا وللآخرين ليس بالإمكان

توقع القرار وبذلك يعتبر أن لهذا القرار نفس التأثير مثل القرار الحر ، بغض النظر عما يتسبب به . فمن الناحية السياسية نجد التأثير نفسه : أسباب أخرى لتكبيبات لا يمكن التنبؤ بها في ما يخص الأحداث التي تحصل صدفة والتي من الممكن أن تؤدي إلى خيارات أخرى لمجرى التاريخ في الأوضاع غير المستقرة .

لنأخذ مجدداً مثلاً من التاريخ : يحتفل أدولف هتلر في كل عام ، والذي نجا من عملية ٩ تشرين الثاني عام ١٩٢٣ ، كديكتاتور بنجاحه . ففي مساء ٨ تشرين الثاني من كل عام كان يعود إلى مدينة ميونيخ ليلقي خطاباته أمام مناصريه في نفس المكان حيث أعلن الانقلاب . وفي ٨ تشرين الثاني ١٩٣٩ ، كان هتلر قد بدأ حربه ضد العالم كله ، قام جورج إلسر ، القادم من منطقة شفابيش ألب ، منفرداً وبشجاعة ، بالتحضير لعملية اعتداء عليه . فقد قام بإخفاء متفجرة موقوتة في عامود كان هتلر يلقي كلماته كل عام في نفس الوقت بالقرب منه ، مجهزة للانفجار أثناء الخطاب . كان جورج إلسر ينوي «الحيلولة دون وقوع الحرب» وفق ما أدلى به عند استجوابه من قبل الغستابو .

هنا يبدأ دور الإرادة الحرة : في البدء قرر هتلر استثنائياً عدم إلقاء خطابه في ذلك النهار بسبب برامجه الحربية . فقد كلف بذلك عوضاً عنه نائبه رودولف هس . ثم عاد عن قراره وعزم على إلقاء خطابه بنفسه بسبب موضوع جوهرى . بسبب رداءة الأحوال الجوية غير الملائمة للرحلات الجوية وبسبب كثرة مواعيده لليوم التالي في برلين قرر هتلر أن يخاطب في الناس لوقت أقل من المعتاد . وهكذا كان هتلر في طريقه إلى المطار لحظة انفجار القنبلة الموقوتة الذي قضى فيه كل من كان حول العامود . لقد أنقذت حرية الإرادة عند هتلر حياته ودمرت نتيجة ذلك حياة الكثير من الملايين . فلو أنه قضى نحبه في تلك اللحظة خلال الحرب لكان من المحتمل أن يبحث خلفاؤه السلم مع دول الغرب .

هذه الحياة التي تصبح واقعا والتي نعيشها حقا تظهر بأنها الحياة المنطقية الوحيدة وغالباً بأنها الوحيدة المحتملة حتى ولو لعب فيها مثلاً فوز ورقة يانصيب دوراً حاسماً، أو لقاء حبيب أيام الصبى عن طريق الصدفة . إرجاء الإدراك هذا يعمي بصرنا عن العالم الذي كنا سنعيشه لولا ذلك ، هذا العالم الكامن الصعب تصوره . فنحن حتى لا نعلم شيئاً عن تنوع الاحتمالات .

طالما أن الأمر المحتمل لم يصبح واقعاً ، يصح عالم الاحتمالات بأكمله . وهذا يعني ، دائماً عندما تدور الأمور حول بناء المستقبل ، وفي المجال السياسي نقف أمام حقل واسع من الاحتمالات .

### النتائج غير المقصودة للتصرف الهادف

هل تعتبر السياسة تصرفاً هادفاً؟ لنأخذ السياسة الصحية مثلاً . هدفها هو الضبط المثالي في التأمين الصحي للعامّة من ناحية الكلفة المدفوعة ، بشكل أن لا يضطر أحد لأن يعاني أو يموت بغض النظر عن طبقته الاجتماعية . كما اتضح حتى الآن بأن السياسة تعمل ضمن حقل من المتغيرات التي لا يمكن التنبؤ بأوضاعها وتطوراتها إلا جزئياً . إذ قد يحدث أن يجتاح البلاد وباء انفلونزا قاتل في أي وقت ما أو أن تدخن الفتيات أكثر من السابق ما يؤدي إلى ارتفاع سريع بنسبة الإصابة بسرطانات الرئة عند النساء ، بالأخص في سن القدرة على مزاوله العمل . هذه الأمثلة هي جزء من ترسانة الملاك إبليس التي لا يمكن التنبؤ بها أو من الصعب مقاومتها ، والتي تجتاح البلاد وتبدد كل المخططات السياسية . في هذا الحقل المليء بالمتغيرات غير الواضحة تضطر السياسة إلى محاولة الوصول إلى هدفها ، كي تصلب نفسها لمقاومة الانفلونزا تفرض التلقيح الإلزامي للجميع . كذلك معالجة الأضرار بالصحة جراء التدخين تضاعف سعر السجائر . كل هذه

الإجراءات تبدو للوهلة الأولى والثانية بأنها تصرفات هادفة وعاقلة . لكن وبما أن المرء يعمل في حقل مليء بالمتغيرات المجهولة فمن الممكن أن تؤدي هذه الإجراءات إلى نتائج غير مرغوب بها وغير متوقعة على الإطلاق . في المثال الأول : يؤدي التلقيح العام عند الناس الذين يعانون من الحساسية وذوي فئة دم معينة إلى إصابة كلية بالمرض . وعند هؤلاء تحصل تحولات في تشكيلة الفيروس التي تنتشر بسرعة هائلة وتصيب أيضاً الذين تم تلقيحهم . في المثال الثاني : يؤدي مضاعفة سعر السجائر إلى جعل عمليات تهريبها تدر مالاً وفيراً ومعها تنمو احتمالات كبيرة لجني المال على مسرح جديد للجرائم . في المدن تدور معارك دامية بين عصابات التهريب التي تقدم كل منها أسعاراً مغرية أكثر . وفي ما يتعلق بالنساء المتحدرات فهن يجدن تدخين السجائر المهربة أمراً لاثقفا كونها أرخص من ذي قبل بكثير . وترتفع نسبة التدخين عند الفتيات المدمنات وفي المدارس بشكل سريع .

تظهر الأمثلة حدوث عواقب غير متوقعة في أي زمن كان في حقل المتغيرات المجهولة غالباً . هذه العواقب كانت لتصرف المرء عن تصرفه لو أنه تنبأ بها . فنحن ننتبه إلى العواقب غير المرغوب بها ونقوم مجدداً بتصرف هادف ثم ننتبه إلى عواقبٍ أخرى جديدة غير مرغوبة . مثلاً تتم مكافحة تهريب السجائر ويطرد المسوقون أو يُزج بهم في السجون . تصبح السجائر نادرة نتيجة ذلك وغالية الثمن وبذلك أيضاً إنتاج مترف وكمالي ، اذاً بغرض التباهي يتم شراؤه واستهلاكه . هنا يصح القول : مشاكل اليوم هي غالباً عواقب حلول البارحة . نصمم السيارة لننتقل بسرعة من نقطة إلى أخرى ونقع في زحمة السير كنتيجة غير مقصودة لتصرفنا الهادف .

## السياسة وعدم اليقين

كيف تعمل السياسة تحت ظروف كهذه؟ ينبغي على السياسة وجوباً درأ المخاطر، وحل المشاكل، والتنبؤ بالمستقبل وحماية المجتمع من الأخطار. إلا أن التخطيط في مجتمع سياسة السوق الحرة غير معقول، لأن أغلب الأحداث فيها تنشأ من خلال قرارات المشاركين في السوق ودون أي تأثير للسياسة عليها. يتم شراء السلع وبيعها بقرار حر. إلا أنه على السياسة استيعاب تداعيات هذه المجريات غير المنضبطة. إلا أن تعقيدات المشاكل وتنوع المتغيرات في السوق الحرة ضخمة لدرجة أنها من غير الممكن تصميم مستقبل واضح وتصور أكيد لمجريات تم التنبؤ بها. في ظروف كهذه تستطيع السياسة التصرف فقط ضمن مرمى مليء بالغموض. طبعاً عليها أن تتمتع بأهداف، لكن ردة فعلها يجب أن تكون مصوبة نحو الهدف، مستقرة مع التطورات الجديدة والنتائج والأحداث غير المتوقعة.

هنا يصح قانون مارفي: «حيث يفشل الأمر، ليس بالإمكان إنجازه، إذ ما من شيء نهائي للمغفلين، لأن لهم ثراء فكري كبير». وهذا يعني بأن الصدفة تجعل اللا معقول كلياً محتملاً. وإذا كان الأمر محتملاً، فوارد حصوله في وقت ما، وربما غداً.

يقدم الملاك إبليس في رواية مارك توين وقصة مليارات الاحتمالات في حياة كولومبوس الوجه الآخر للمجتمع: لا تستطيع السياسة على الإطلاق تقديم خدماتها باستعمالها الحقيقة. إذ أن تحقيق وعودها وخططها ليس بيدها بالكامل. فالنتائج غير المقصودة لتصرفها الأهداف تسبقها. كما وأنها تقع دائماً في مأزق ولا مفر من ذلك. ويتم السعي عندها على تخفيف وطأة هذه المأزق. حتى هنا تتكون نتائج غير مرغوبة وغير متوقعة. وبهذه أيضاً تشغل السياسة ومجدداً ينشأ عن ذلك نتائج غير مقصودة. وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.

كل هذا يظهر بأن السياسة لا يمكن أن تكون مخططاً سيادياً وفق إدراك عاقل كما يتمناه المرء . إنها هدافة دائماً وبذلك عاقلة . إلا أنه يتوجب عليها أن تأخذ بالحسبان نتائج غير مقصودة وأحداث غير متوقعة تتصرف بموجبها . فهي ليست مثل رحلة بحرية هادئة مدروسة المسار مسبقاً كما تزعم وكما يتصورها البعض ، بل هي مضطرة لأن تغير طريقها ولتأخذ مساراً أطول بسبب الرياح المتبدلة الاتجاهات ، أو التيارات المفاجئة ، أو جبال جليدية تأخر رصدها ، أو وجود سفن في الاتجاه المعاكس دون علم مسبق ، أو أيضاً بسبب رغبات جديدة من الأمر . لكن هذا المسار موجه دائماً إلى الهدف المنشود وينتهي هناك أيضاً في يوم من الأيام .

### ما هي نسبة الحقيقة الممكنة في السياسة؟

كما تبين ، هناك مشكلة أخرى وأكثر أهمية في ما يتعلق بالحقيقة في السياسة . بالطبع يبقى من الأفضل لو أن الحقيقة تحكم المجتمع . لكن أغلب المجتمعات التي أعلنت نفسها باسم الحقيقة ، انتهت تحت صفة مجتمعات إرهابية .

مثلاً ممثلو الحقيقة الدينية : دائرة تعقب الملحدين طاردت واضطهدت وعذبت وحرقت كل من حاد عن الحقيقة التي حددتها الكنيسة آنذاك . باسم الجهاد والحروب الصليبية تحارب الإسلام والمسيحية . قام المسيحيون الغزاة بالمجازر ، واستعبدوا وأهانوا «الكفار» في كل أنحاء العالم الجديد الذي اكتشفوه . وأيضاً في أوروبا فقد فتكت الحروب الدينية بعد الإصلاح بالدول أكثر من أي حرب جرت قبلها أو بعدها .

ثم يليهم مندوبو الحقيقة الفلسفية : المقصلة هي التي نصبت الثورة الفرنسية بحكمتها الربانية كالإله . الفكر الشيوعي الذي هدف إلى تحرير

الناس قام في الدول التي حكم فيها وحدد مجريات سياستها ، بتعذيب الملايين ورميهم في المعسكرات وتحطيم حياتهم وقتلهم . فعندما يعتقد المرء بأنه يمتلك الحقيقة ، يبدو له أنه من الطبيعي والمنطقي أن يستخدم هذه الحقيقة في محاربة من هم ضدها . إنه خطر الحقيقة الكبير ، يحدق بنا ، عندما يعتقد أننا حصلنا عليها . لكن السؤال هو ما إذا كان من الممكن الحصول عليها؟

### الفكر البناء - الفرضيات في نماذج الواقعيات

من المحتمل أن يكون التحقق من حقيقة العالم ، كما هو عليه في الواقع الحالي ، وكيفية تطوره مستقبلاً غير ممكن من خلال العقلانية ولا من خلال العلوم ، لأنهما يطرحان نظريات ونماذج لا تظال ولا تبحث أمر الواقع ويدققان فقط في مؤهلات نماذجهما . فإذا احتوى أحد النماذج الميزات المرتقبة ، مثلاً نموذجاً فيزيائياً عن الكون مؤهلاً لإطلاق صاروخ إلى القمر ، عندها لا يهم المعنيين المشاركين إذا قدم النموذج الواقع أم لا . المهم عندهم أنه يعمل .

النماذج كاخترائط . فيها تُترك بعض الأجزاء غير المهمة للهدف الذي صممت لأجله . الخرائط نماذج تبين الطبيعة . بالمستطاع طيها ووضعها في الجيوب . كما أنها تخدمنا بإيجاد السبيل الأقصر لهدف ما من خلال استخدام مقاييسها . ومن إيجابياتها طريقة استعمالها الواضحة والمثلى . لهذا السبب تبين النماذج فقط جزءاً من الواقع الذي يعتبر مهماً للهدف المنشود . وهكذا نجد الطرقات في الخرائط المخصصة لها ملونة ، والطريق السريع مرسومًا بخط عريض كما المدن الكبيرة . العناصر الطبيعية في هذه الخرائط غير مهمة على الإطلاق وبالإمكان إهمالها . أما في خرائط التجول في الطبيعة فالمطلوب هو التفاصيل الطبيعية ونقاط التوجه وعلامات الطرق في البرية .



وهنا يعتبر الطريق السريع غير مهما . ليس من المهم إذاً إظهار الواقع بدقة في النموذج . فالأمر يدور حول الأهمية وليس حول الدقة . فخارطة وسائل النقل العام الداخلي لمدينة برلين هي فقط خريطة توضيحية ولا تتطابق مقاييسها مع المسافات الحقيقية وأماكن وجود المناطق المختلفة للمدينة على الإطلاق . ومع ذلك فهي خريطة نموذجية ناجحة ، لأنها تشرح بواسطة أي باص وأي قطار نساfer من وإلى أين وأيضاً أماكن تغيير وسيلة النقل . وهذه هي المعلومات التي نحتاجها منها . أية معلومات أخرى تؤدي إلى الحيرة والضياح . كذلك هي الحال مع «الحقيقة» في العلوم الطبيعية . لنأخذ على سبيل المثال تطور علم الفلك حول نظريات تشكيل عالمنا . لقد تم منذ زمن إثبات عكس النظرية القديمة القائلة بأن الأرض قرص دائري . إلا أننا ما زلنا نستخدمها كنموذج يومياً ، لأنها تفي بالأمر . كل الخرائط الطبيعية مسطحة ، وإذا أردنا السفر من برلين إلى فيينا نخطط سفرنا كما لو أن الأرض كانت قرصاً مسطحاً .

إذا أردنا السفر بالطائرة إلى منطقة واقعة في النصف المقابل من الأرض ، عندها يكون مهماً أخذ الأرض بشكلها الكروي . فعندها تكون المسافة الأقصر بين نقطتين تلك التي تشكل قوساً ، والذي يعتبر جزءاً من دائرة مركزها هو محور الكرة الأرضية . تتم رحلتنا من فرانكفورت إلى لوس أنجلوس وفق المخطط المبسط عبر باريس ونيويورك . أما وفق الشكل الكروي للأرض يكون الطريق الأقصر عند أقصى الشمال ويمر فوق غرينلاند . وبما أن الأرض تدور حول الشمس ، فهذه الظاهرة مهمة لنا فقط فيما يتعلق بمسألة فصول السنة . إلا أن نموذج نظرية بطليموس القديمة تصح هنا أيضاً والتي كانت تقول بأن الأرض هي محور الكون . وإذا أردنا أن نشرح بإرسال صواريخ إلى كواكب بعيدة جداً نكون بحاجة إلى النموذج المركزي لنظامنا الشمسي . والنماذج

الفيزيائية الجديدة تخطت منذ زمن بعيد قدرة التصور الحسي لدينا في هذا المجال وهي تمثل فقط رمزاً للنماذج من ناحية الرياضيات . هذه النماذج ستصبح أكثر دقة بالمضمون والشكل . وكل الملامح تشير إلى أننا لا نملك القدرة على إدراك الواقع حتى في مجال العلوم الطبيعية كما هو ، بل نحن نقرب منه باستمرار من خلال نماذج أكثر دقة .

تطلق الفلسفة على هذه النظرة اسم «الفكر البناء» . لقد تلقى الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، مثل Paul Ernst von Watzlawick (أنظر لائحة المراجع) الكثير من التقاليد الفكرية التي تدعو للشك وطوروا منها فلسفة قابلة للتطبيق . هذه الفلسفة لا تخلو من احتمال احتوائها للحقيقة . قد يكون أمراً جيداً أن يوحي الله بالحقيقة للمتدينين ، لكن بوجود الكثير من المتدينين المتعددين والمختلفين يبدو أنه من الأفضل التصرف وكأن ما من أحد يملك الحقيقة ، بل كأن الجميع يملك نماذج يصلح اعتبارها بأنها تمثل الواقع .

هذا الأمر يصح أيضاً في المجال السياسي . كي تتمتع بالقدرة على التصرف ، عليها الانطلاق من جهة بأن نماذجها وتوقعاتها المستقبلية صحيحة ، ومن جهة أخرى عليها في نفس الوقت الإيضاح بأن التأكيد غير مضمون . فما من كوكب يسلك مداره في الكون بشكل مستمر للمليارات السنين . وفي السياسة هناك الكثير الكثير من الاحتمالات المشابهة لسير حياة كولومبوس . فعوضاً عن المدارات القابلة للحساب والدراسة تشغل السياسة في خضم واسع من التطورات المحتملة وعليها العمل والمتابعة في خضم هذه الاحتمالات ، ما يؤدي إلى تقوية عدم الجزم بأقوالها . من كان صادقاً يقدم مراً واحداً فقط للتطورات المحتملة .

## الحرية : إعطاء الإذن بارتكاب الحماقات

يعتبر الدرس الأول الذي ينبغي على السياسة أخذه عندما يتعذر الحصول على الحقيقة هو أنه عليها تقديم مجال كاف لعدد كبير من التصاميم الحياتية . عليها التراجع عن قراراتها الجوهرية والتمرن على القدر الأعلى من التسامح ، لأن البعض يعيش بشكل مميز في التصور بأن معنى الحياة هو فقط التمتع بها . بينما يمضي غيرهم حياة جيدة مثلهم لكن مع التصور بأن معنى الحياة هو إسعاد الآخرين . وأيضاً غيرهم يعيش حياته السعيدة مع التصور بأن معنى الحياة هو أن يحظى برضا الله وبالْحكمة الحقيقية من خلال الشقاء والاستغناء عن كل الملذات . وهناك آخرون يعيشون حياة راضية لأن الحياة المثيرة هي في حرب مستمرة لأجل الحصول على الإعجاب .

تظهر هذه الأمثلة القليلة تضارباً للنماذج عن الحياة الحقيقية ، لكنها أيضاً تصلح كلها لتكون واقعاً ومُسعدة . طبعاً يميل كل واحد من المعنيين لاعتبار نموذجه عن الواقع هو الوحيد الصحيح ، خاصة إذا تحقق لهم ذلك . فالتناسك الذي يرغب الوصول إلى الطهارة من خلال الاستغناء والشقاء ، لا يمكنه التصور أن معتنق مذهب اللذة ، الذي يرى أن معنى الحياة يكمن في الملذات ، يملك الحق ويتصرف به مثله هو . عوضاً عن ذلك سيحاربه بكل الوسائل لأجل هدايته . كل منهما سيعتبر الآخر غيباً فاقداً للأخلاق وخطراً على الإنسانية . وإذا انعدمت الوسائل للتحقق ، أي منهما هو الحق ، فينبغي إعطاء العقيدتين مجالاً كافياً . طبعاً يعتقد ويشدد كل منهما على أن موقفه هو الذي يمثل الحقيقة ، والآخر الحماقة . وبما أن هذا المنطلق يصح للجميع ، نتوصل إلى القول بأن كل شخص يجب أن يتمتع بحريته للقيام بما يعتبره الآخرون غيباً . وهذا هو الدرس الأهم الذي أدركناه من الملاك إبليس ، الذي لا يعرف الأخلاق ، من خلال قصته عن مليارات سير حياة كولومبوس . إنه

من الممكن وجود كمية لا تحصى من التصورات المتعلقة بحقيقة العالم والقبالة لأن تكون واقعاً ، بما أن سياق الأقدار يتعلق بتفاعل أحداث كثيرة جداً يصعب التنبؤ بها . وكل حدث منها يكون بنظر الآخر تافها وقابلا لتجاهله . ما من حقيقة لها القدرة أن تفرض على الجميع وجوب الالتزام بها . يعتقد الكثيرون من المحافظين والشيوعيين بأن الحقيقة هي الواجب الإلزامي للقيام بالصواب . لقد عبّر الفيلسوف هيغل Hegel عن ذلك بالشكل التالي : الحرية هي الإدراك في الأمور الضرورية . الصواب والضرورة يشترطان التعرف على ما هو صحيح وما هو ضروري . إلا أن مليارات سير حياة كولومبوس ، والنماذج الكثيرة المحتملة عن العالم والمناسبة لها ، تستثني نموذجاً شاملاً ملزماً للجميع . عندما تعنى الحرية السماح بالقيام بما يعتبره الآخرون غباء ، عندها فقط تحصل الحرية على اسم حرية .

### درس في السياسة : الأخلاق والأدبيات عند الارتباب

كيف يمكن للسياسة التصرف في شروط كهذه ، إذا لم يكن باستطاعتها التدخل في موضوع بشكل صحيح ، وإذا تعذر عليها التوقع للمستقبل بشكل واثق على الأقل ؟ كيف يمكن التصرف بشكل سليم بوجود قصور في المعرفة ؟ لا يجب إصدار حكم الإعدام على أحدهم إذا لم يكن مؤكداً ما إذا كان المدعى عليه قاتلاً . هذا المثل يوضح مباشرة وجود حكمة في التصرف عند الارتباب . هذه الأخلاق تحظر القرارات التي يصعب تعويض نتائجها . من هنا نستنتج مبدأ توسيع احتمالات التصرف : على التصرف السياسي أن يؤدي قدر الإمكان إلى احتمالات أوسع للتصرف وليس أضيق .

هناك نتيجة أخرى منطقية للجهل في التصرف ، ألا وهي الأخذ بالافتراضات حول الواقع وكأنها فرضيات تكون تكراراً موضع الشك . وهذا

أمر صعب بامتياز للسياسيين لأنهم يقنعون الناس بأرائهم ويكسبونها بذلك إلى جانبهم . عليهم بث الأمان والطمأنينة المؤكدة ودائماً يشكلان لهم موضعاً للشك .

يتم التلاؤم في هذا الأمر من خلال تطور مواقف العلماء تجاه العالم . من الناحية العلمية الجيدة يصح القول بأن العلم يتخذ موقفاً حيال نظرياته وافتراضاته ويدافع عنه بشغف وبنفس الوقت يستمع إلى أية معلومة تتعارض مع صحة نظرياته وافتراضاته ما يجعله ، بعد التمحص الدقيق من هذه المعلومات ، بالتسليم لتركها أو تعديلها .

بعد كل هذه المقدمات حول التصرف تحت شروط الجهل يأتي مبدأ التسامح كمبدأ ملخص : طالما أن موقفاً ما لا يتعارض وحقوق الإنسان ، يتوجب تحمله حتى ولو كان يتناقض مع الافتراضات الشخصية . وعلى السياسة أن تسجل موقفاً لكن عليها أيضاً أن تتحمل آراء أخرى وأن تؤمن لهذه الآراء مجالاً لتحقق وتعبّر عن نفسها . ينتج عن ذلك تفهم شامل للسياسة الديمقراطية بما أنه ما من سياسة تنطلق من أنها تملك الحقيقة ، عليها أن تراهن على أن المعنيين بالسياسة يصيغون وينظمون حقائقهم بطريقة حزبية ويدخلوها في المجال السياسي . وتكون النتيجة ما يسمى غالباً باللوية ، غير المفضلة عند العامة .

هذه التسمية تأتي من الكلمة الأمريكية لقاعة الاستقبال : اللوبي في الفندق مثلاً هو القاعة يكتبها المنجد المريح المحيط بطاولاتها المنخفضة . في هذه القاعة تجري المحادثات المغلقة . كان اللوبيون أساساً ممثلين مسجلين رسمياً لمصالح منظمة ، وتتمتع بصلاحيات حق الدخول إلى قاعة الاستقبال في البرلمان الأمريكي المسمى مبنى الكونغرس . ومن هنا تنحدر تسمية كل ممثلي المصالح سواء في البرلمان أو خارجه .

للوبيين صيت سيء ، فهم يُعتبرون مفهوماً للأناية وانعدام المسؤولية

والذين لا يهتمهم سوى المال والربح . إنهم أولئك الفتيان المراوغون الحذرون يبدلاتهم الغالية الذين يسلمون السياسيين الملايين في حقائب صغيرة سوداء ويلبسونهم من الحديد ما يكلف الآلاف من اليورو ، وينظمون لهم الولائم والرحلات الفاخرة والمؤتمرات ، وخلالها يحيكون صفقات بيع الأسلحة التي تتسبب في مجازر بحق النساء والأطفال في واحدة من الحروب الأهلية في أفريقيا . ذكرت إحدى الصحف في الآونة الأخيرة الكثير عن هؤلاء اللوبيين عند شيوع خبر فشل إحدى أعمال الرشوة . اللوبيون موجودون حقاً وأغلب الظن أكثر مما نعرف . إلا أن أعضاء غرين بيس هم أيضاً لوبيون ، وكذلك ممثلو نقابات أصحاب المؤسسات والنقابات . نجدهم أيضاً في الصليب الأحمر وال ADAC ورابطة البر والإحسان . حتى الناشطون في ATTAC (المنظمة الشبابية المناهضة العولمة) هم لوبيون . كل من يحاول التأثير على السياسة ولا يمثل شخصياً أي حزب ، بل يتوجه نحو السياسيين المنتخبين سواء رجالاً أو نساءً ، يظل بصفة ممثل مصالح ، هو لوبي . كلما ازداد عدد الذين يقفون بجانبهم أو كمية المال الداعمة لهم ، أو كلما ازداد الخراب الذي يتسببون به ، كلما ازداد تأثيرهم على المجرى السياسي .

كل فرد من هؤلاء المندوبين للمصالح زعم حقيقة مختلفة ، لأنه يتمتع بنظرة الخاصة عن العالم وهو يحاول تمريرها في تشريع القوانين لدى الحكومة . الأحزاب على أنواعها أيضاً تدعي حقيقتها الخاصة بها وتنوي تطبيقها عملياً . إلا أن السياسيين يتم انتخابهم أو إعادة انتخابهم مجدداً ، وبذلك عليهم أن يستجيبوا أو يردوا على الضغط الذي يفرضه ممثلو الحقائق الأخرى ، ألا وهم اللوبيون . هؤلاء السياسيون يتركون مراكزهم ويتسلمون أجزاء من مستحقات نقابات المصالح المهمة . تكون النتيجة الحل الوسط ، وهو مزيج من الحقائق المطروحة ، وفيه لا يتعرف أحد من المشاركين في

صياغته على ما قدمه هو . لكن النتيجة بالنهاية ، في عالم مليء بالترجيحات وبمليارات من سير كولومبوس الحياتية ، هي حل ميسور ، لأن الكثيرين شاركوا في صياغته التي تضمن مصالحهم جميعاً .

## الفصل الثالث

### روبينسون كروسو - أو: حدود الحرية الفردية

إذا كانت الحرية تعني السماح بالقيام بما قد يعتبره الآخرون غباءً أو رعونة أو حتى شراً بسبب عدم وجود شروط لتصورٍ مشتركٍ عن الحقيقة ، فهنا يطرح السؤال بطبيعة الحال حول الحقيقة .

كان الشعراء والفلاسفة مذهبولين من السؤال حول احتمالات وحدود حرية المرء في القرن الثامن عشر ، زمن الانفتاح ، حيث تم اكتشاف الفرد للتو . تلك الاحتمالات والحدود كانت محدودة من خلال التقاليد في المجتمع المطرد . ولكن ألم يكن من الضرورة تحديد الحرية بشكلٍ آخر إذا انطلقنا من المبدأ القائل أن وضع الطبيعة يشابه ذلك الذي تمّ التعرف عليه في القارة الأمريكية؟

في مطلع ذلك القرن وبالتحديد في عام ١٧١٩ تم نشر قصة روبينسون كروسو للكاتب البريطاني دانيال ديفو التي تعالج تلك المسألة بأسلوب شعري ، بصورة ذلك الذي تحطم به القارب ودفعت به المياه إلى جزيرة نائية حيث اضطر هناك إلى برمجة طريقة بقاءه على قيد الحياة متحدياً الطبيعة . هذه القصة حققت حتى يومنا هذا نجاحاً خارقاً كنسخة مبسطة جداً عن عالم الملك الإبلis . وفيها تمثل المجتمع بأكمله في شخص واحد ألا وهو روبينسون كروسو الذي غرق قاربه ، عوضاً عن أن يشارك في هذا المجتمع أشخاص عديدون . إذ أن كفاحه من أجل البقاء على قيد الحياة على تلك الجزيرة



النائية يصور ويشرح عراك الإنسان مع الطبيعة إضافة إلى التنظيم التام للمجتمع .

في ليلة عاصفة جُرف من على متن السفينة وكانت احتمالات التصرف عنده ضئيلة جداً في خضم مجابهته أمواج العاصفة الليلية المتلاطمة ، جلّ ما يستطيع فعله هو إما السباحة أو الغرق . احتمالان فقط ، وهذا يعني حدّين للحرية . ينجح عبر تلاطم الأمواج بالوصول سالماً إلى اليابسة . ما أن تمّ ذلك اتسعت دائرة حرّيته بشكل ملحوظ : بإمكانه الاسترخاء والنوم وبعدها البحث عن ماء للشرب وطعام كي لا يقضي حتفه عطشاً وجوعاً . في هذا الحال بات في مستوى الإنسان البدائي . لديه من الوقت ٣ ساعات عديدة أو حتى بضعة أيام قبل أن يقع في مأزق يودي بحياته دون طعام وشراب حيث تهبط نسبة حرّيته إلى نقطة الصفر .

خلال ذلك غرق مركبه ومعه كل من كان على متنه . إلا أن الجزء الأكبر من حمولة المركب ، ويا للعجب ، دفعته الأمواج إلى الشاطئ دون أي أذى . شيئاً فشيئاً بدأ يجد البراميل الواحد تلو الآخر وبداخلها كل ما كان تحت تصرف الحضارة آنذاك : مؤن ، ملح ، بهار ، توابل ، فأس ، منشار . مطرقة ، مسامير ، روم ، بندقية مع رصاصها وبودرتها الجافة ، وحتى أنه وجد كتاب الإنجيل بينها . مع كل أداة ومع كل برميل مؤنة يجده على الشاطئ كانت تتفتح له آفاق جديدة لحرّيته . وبعد أن اكتشف مغارة وبنى على مدخلها ساتراً ، استطاع أن يأوي إليها ويحمي نفسه من الحيوانات البرية والعواصف ورداءة الطقس . وهكذا استطاع أن يكسب لنفسه في صراعه ضد الطبيعة احتمالات جديدة وبذلك آفاقاً جديدة لحرّيته بواسطة أدواته وبندقيته . فقط قدراته كانت محدودة .

تلك كانت رسالة دانيال ديفو السعيدة للمجتمع الشعبي الطموح آنذاك :

فقط القدرات الشخصية والتقديمات هي التي تحدد نجاح الإنسان وليس حق الولادة . وبذلك أصاب عصب الزمن . «العودة إلى الطبيعة» ، وهذا ما اتَّهمَ به روسو كرسالة ثورية ، والتي لم ينطق بها أبداً ، تدل على نفس الأمل بالتححرر من الارتباطات والعلاقات التقليدية التي بدت أنها تحققت في الهدوء على تلك الجزيرة المنعزلة .

### «مملكة الحرية»

يعيش الناس ضمن مجتمع وعلى الحرية أن تثبت نفسها فيه . وقد توصل فلاسفة القرن الثامن عشر إلى نتيجة منطقية صحيحة بعد التعمق في مسألة حرية الإنسان في المجتمع ، ألا وهي أن حدود الحرية الفردية يجب أن تكمن في حرية الناس الآخرين . إذ أنه بالمستطاع القيام بكل شيء ، حتى الأكثر حماقة أو ذكاء ، طالما أنه لا يعرقل أو يحدّ حرية الآخرين . على هذا الشكل كان تعبير ثوار القرن الثامن عشر الذين أعلنوا حقوق الإنسان لأول مرة في أمريكا عام ١٧٧٦ وبعدها في فرنسا عام ١٧٨٩ . ويبدو بأنه لا يحتاج للنقاش منطقياً ، وتاماً ومعتدلاً في الوقت نفسه . فالجميع يتمتعون بأفاق حريتهم وتقرير مصيرهم ، بالإضافة إلى آفاق مشتركة يتفقون ويتفاهمون بموجبها من خلال السياسة ، باستخدامها بشكل صالح .

في أواسط القرن التاسع عشر أعطى كارل ماركس وفريدريك انجلز في كتابهما «انتقاد الايدولوجية الألمانية» لهذه الفكرة ، تطلعات تاريخية إنسانية : بقدر ما يطور الإنسان احتمالات أفضل لإنتاج ضروريات الحياة ، عليه أن يقضي وقتاً أقل في مملكة الضروريات ، وتتسع بذلك راحة الزمن المكتسب «مملكة الحرية» من خلال تصرفات أخرى بديلة . في الفكر الشيوعي كان من اللزوم أن تكون مملكة الحرية واسعة ، بشكل لا يصبح فيه

أحد مضطراً لتحديد عمل ما يؤديه للبقاء حياً ، وكل شخص يستطيع أن يكون صباحاً ناقداً ، ظهراً صياداً ومساءً موسيقاراً . كلُّ يؤدي دوره ليحيا حسب مقدراته ويجني حسب احتياجاته . وهكذا تكون مملكة الحرية هذه شبه لا محدودة .

إذا أمعنا النظر عن كثر في مملكة الحرية هذه نجد بأن مفهوم ومظهر العدالة يختلفان بسرعة ، فهي تختلف بحسب الأوضاع الحياتية . فالناس العاديون عالقون في شبكة متشعبة جداً وقنوات ضيقة من اللااستقلاليات . فتقريباً مع كل عمل يعملونه يضيقون على أناس آخرين مجالات حرياتهم ولا يستطيع النمو الإنتاجي تغيير شيء بذلك ، لأن متطلبات الناس من بعضهم البعض تنمو أيضاً .

يبقى الأبناء مهتدين بأهلهم . في زمن القرون الوسطى كان الأمر غائباً قصة حياة أو موت كما هي الحال اليوم في الضواحي الفقيرة من البلاد النامية ، في بنغلادش مثلاً . اللااستقلالية هناك هي أكثر قساوة ووحشية وطبقية . النساء خاضعة للرجال والمجال الاقتصادي ضيق جداً والضغط الاجتماعي مرتفع لدرجة أن الأهل مضطرون دائماً للاستدانة بشروط لا أمل لهم فيها أن يسددوا تلك الديون . في الواقع إن مملكة الحرية بالأمس كما في اليوم شبه معدومة في أوضاع كهذه .

في المجتمعات الصناعية يجري الأمر حول مجالات الحياة والدعم . وأيضاً هنا يتقيد الأهل ويتعلقون ببعضهم البعض وإن لم يكن ذلك بوحشية وطبقية ولكن بلا استقلالية . فأهلهم وأجدادهم يتعلقون بهم وينتظرون منهم الإنتباه والإصغاء . فهم يعلمونهم كيف يربون أولادهم . الجيران والأصدقاء يفرضون آراءهم . وأحياناً يتسنى لهم بعض الدقائق آخر المساء عندما يذهب الأولاد إلى النوم . وهذه هي «مملكة حريتهم» . وتقريباً في كل ما يقومون به

يضعون حدوداً لوسائل تصرفات أناس غيرهم ، هم أيضاً متقيدون بهم تقريباً في كل ما يفعلونه . فإذا قدموا حناناً إلى طفل فهذا يعني الابتعاد عن آخرين . أما إذا تركوا الأطفال ينمون هم بأنفسهم فمن الممكن أن يتعرقل نموهم وتضييق حدود تصرفاتهم . أما إذا اهتموا بهم كثيراً فقد يؤدي ذلك إلى دلح واكتفاء مبالغ به ولا يمارسون الاعتماد على النفس وتتكون حدود لنموهم وتطورهم . إلا أن الفرق بين ذلك وبين القرون الوسطى أو الضواحي الفقيرة في بنغلادش شاسع جداً . فالأهالي في المجتمعات الصناعية يتمتعون بخيارات أخرى . فحدود حریتهم أصبحت أكبر بشكل ملحوظ . إلا أنهم إذا تقيدوا بقوانين حدود الحرية ، حيث تنتهي حرية الذات وتتأثر حرية واحتمالات تطور الغير من خلال تصورها الواقعي ، فعندها تصبح الحاجة إلى اللااستقلالية ضرورية ، ولكن ليست أقل .

### الروبسنونية الحديثة وتداعياتها

بقيت قصة روبنسون أخاذاة حتى بعد الثورة وبعد إلغاء تمييز الوجهاء . حتى يومنا هذا هي على كل لسان وتذكر في كتب السفر بشكل لا يعد ولا يحصى . كما ويحاول تقليدها وتطبيقها عدد من الشبان المسمون المسافرون المنفردون ، والذين يطلقون على أنفسهم اسم «الجوالون حول العالم» وذلك خلال أسفار رخيصة جداً ومنهكة ونوعاً ما خطيرة . ولا تزال الروعة الروبسنونية تنطلق من الأمل بأنه من المستطاع أن يحرر الإنسان نفسه من اللااستقلاليات والروابط المذكورة .

إلا أن هذه الروبسنونيات السخيفة اختفت منذ زمن وحل محلها شكل حضاري جديد حيث يتحقق الأمل بالتحريير من اللااستقلالية والروابط ، دون أن يخطو أحدهم خطوة واحدة خارج المنزل ، ودون كل المعاناة التي كان يتكبتها كل من كانوا يقلدون روبنسون التاريخي .

كما كان الحال مع روبنسون الذي جُرِّفت على أقدامه كل أنواع الراحة لدى العالم الحضاري ، نستطيع اليوم على قدر ما نملك من المال أن نستحضر كل أنواع الراحة عند العالم الحضاري إلى المنزل ، دون أن نضطر إلى الاقتراب من أي شخص كان أو أن نبني علاقة مع أحد . فبالمستطاع تحقيق القدر الأعلى من الحرية دون أن نضطر إلى مراعاة شعور أي كان .

من خلال التعبير عن الحرية ، الذي بموجبه يتم تحديد مفهوم حدود الحرية عبر حقوق الآخرين ، يتزايد عدد الناس الذين يأخذون روبنسون الخالي من الروابط كمثلهم الأعلى . إذ من المستطاع شراء مجال الحرية . مثلاً : «هاورد هافس» ، الملياردير الأمريكي الذي يتحاشى الناس جداً ، نجح في اتباع نمط حياة مشابه لروبينسون في بنتهاوس . فقد استطاع بماله الحصول على كل ما ابتغاه ، وكان يحصل على طعامه وأغراض شهواته من خلال ثغرات وممرات ولم يكن بذلك مضطراً للالتقاء بالناس (فهو لم يكن يريد الاحتكاك بالناس) . لقد مارس الروبنسونية وأصولها إلى ذروتها .

إذا كانت الحرية تعني غياب اللااستقلالية والروابط ، وبذلك المال هو الوسيلة الأفضل لتوسيع مجال الحرية ، فعندها يتشكل فقط عالم مقلوب ووحيد وفارغ بازدياد . وكلّ ما لا يستطيع المرء شراءه بالمال ، لكنه ضروري وملح للحفاظ على المجتمعات ، يتم تقليل قيمته ويعتبر بأنه تقليص خطر للحرية . الاهتمام الإنساني بالحبيب ، بالأطفال ، بالأقارب والأصدقاء يؤدي لا محالة إلى اللااستقلالية والروابط ويقلل مجالات الحرية . ولهذا السبب يزداد في الدول الصناعية عدد الذين يفضلون الحرية في العزلة عن اللااستقلالية في القرب . نسبة الزواج في انحدار ، كذلك نسبة الولادات ، علاقات القربى تفقد تدريجياً الأهمية والروابط ، والاستعداد والقدرة على بناء العلاقات أصبح أكثر صعوبة وندرة .

وهكذا تقع السياسة من تلقاء نفسها في مأزق خطر ، تلك التي تراهن على تركيبة مكونة من الفائدة الذاتية وعدم الاكتراث : قبل أن تدعم الشؤون المشتركة خارج المجتمع المالي ، عليها أن تدعم الفائدة الذاتية ومنطق المجتمع المالي ، لأن الأولى هي التي تقدم الوسائل التي تشغل المشاريع الأخرى . إلا أن هذه المشاريع المبنية على الروابط الإنسانية أصبحت دون قيمة في منطق المجتمع المالي وتعتبر خطراً محدقاً بالحرية .

إنها خبرة حصل عليها بكثافة أغلب من عاش ونما في ألمانيا الديمقراطية سابقاً . فهناك لم يكن ممكناً الحصول على السلع والخدمات في الأسواق . فقد أدت الصعوبات في توصيل البضاعة وضالة العروض ومحدوديتها في الكثير من المجالات إلى إجبار الناس على اللااستقلالية والتقرب الواحد من الآخر ، ما يُعتبر وضعاً استثنائياً في المجتمع المالي ومجتمع السلع العامل بشكل جيد . فإذا أراد أحدهم على سبيل المثال الحصول على كتاب جيد نادر موضوع تحت طاولة المبيعات ، كان عليه أن يبني علاقة جيدة مع صاحب المكتبة . هذه الضروريات اختفت بعد التحول والوحدة الألمانية وتوحيد العملة . وأصبح الحصول على كل السلع ممكناً فقط مقابل المال . وعند وجود المال فالمستطاع شراؤها أينما كان . فالعلاقات الشخصية لم تعد ضرورية لذلك تحلحت شيئاً فشيئاً . ومعها اُخْتُفَّت أيضاً الثقة والحوار التي كانت مزوجة بها . لقد جلب دخول المجتمع المالي إلى المقاطعات الألمانية الجديدة للكثيرين مع حرته وتنوعه وراحته الوحدة والفراغ على السواء .

إن الأمان والمساواة والحوار هي في علاقة غير مريحة مع الحرية . الحرية الأكثر تكلف عادة خسارة في الأمان والمساواة والحوار .

## توازن الروبسونية مع السياسة

إذا تم تعريف الحرية على أساس أنها مجموعة من كل ما نملك من احتمالات للقيام بأعمال محددة في برهة واحدة ، فهذا يعني بأن هذه الحرية محدودة من خلال القدرات والوسائل التي يملكها الفرد من ناحية ، ومن ناحية أخرى محدودة أخلاقياً من خلال حقوق الآخرين بالحرية ومن خلال الواجبات والتقييدات التي تنتج عنهم . إن الحد الثاني يؤدي إلى الميول إلى الروبسونية الحديثة .

إلا أن هناك حداً آخر للحرية متغير للغاية ولا يعرفه إلا القليلون : الناس الآخرون . فبإمكان هؤلاء تحديد تصرفات كل فرد بنفسه وصولاً إلى العبودية من خلال قدراتهم وأساليبهم . إلا أن بإمكانهم أيضاً توسيع مجال تصرفات شخص ما بشكل شبه لا محدود . من أجل ذلك عليهم فقط أن يدمجوا جزءاً واحداً من وسائلهم وقدراتهم وأن يستخدموه ليحققوا هدفاً مشتركاً . مع ازدياد عدد الشركاء في التحالف ترتفع نسبة قدراتهم المشتركة وبذلك أيضاً مجالات تصرفاتهم إلى أضعاف . أية روبسونية مجهزة بالكامل تعجز عن المجارة . إلا أن تحالفات كهذه غير معقولة عند الافتقار إلى الروابط الشخصية والحوار وعند فقدان الثقة والتقييدات . مع العلم أنها تنتج أضعافاً من الحرية الروبسونية ، إلا أن هذه الحرية مختلفة وملبئة بالروابط والنزعات .

هذه التحالفات هي المؤهلات والأداة الجوهرية في عالم السياسة التي لا يمكن أن تعمل كما يجب من دون تكتل قدرات ووسائل الكثير من الناس للوصول إلى أهداف مشتركة . إلا أن تكتلات كهذه ، الأحزاب ، ليست خالية من النزعات على الإطلاق . لأن أعضاء الأحزاب المختلفة تظهر للعيان سوية ، إلا أنهم باطنياً يتنافسون على الدوائر والاعتبارات وفحوى المراكز التي يتمنون أن تؤخذ بعين الاعتبار في توجهاتهم المشتركة .

تثبت السياسة وأحزابها بهذا الأسلوب أنها طريقة مفاجئة جديدة لتوسيع مجال الحرية الفردية دون أن تضطر إلى أن تنفصل عن الروابط والتقييدات الإنسانية . فهي بذلك تصبح قوة مضادة لا غنى عنها لعالم الروبنسونية المالية الفارغ والمنعزل والمخالف . رغم كل النزاعات والمكائد والخلافات والرياء التي يتم إلزامها بالأحزاب لا محالة فهي تفسح لأعضائها مجالات للحرية ووسائل تسمح لهم بالتأثير على مصير عالمهم المحيط بهم ولمصلحتهم ، وتبقى هذه المجالات والوسائل بالنسبة للروبنسونيات بعيدة المنال .





## الفصل الرابع

### الجلادون المطيعون - أو الحدود الضرورية للسلطة والسيادة

تصور بأنك واقف أمام منصة وتتعرق . وعلى المنصة تم تثبيت ثلاثين مزلاجاً متحركاً مرقماً . تبدأ الأرقام بالرقم ١٥ وترتفع إلى ٤٥٠ بتدرج بفارق ١٥ . وفوق الأرقام توجد كتابات تقسم المزاليج إلى أربعة مجموعات : «صدمة خفيفة» ، «صدمة وسطى» ، «صدمة قوية» و«XXX» . كما ويبدو أن الأرقام تدل على مستوى القوة الكهربائية بالفولت والتي يسببها تحريك المزلاج إلى الأعلى لأن أسلاكاً كهربائية موصولة من المنصة بكرسي كهربائي موضوع في الغرفة المجاورة . هناك يجلس أحدهم محزماً بالكرسي والذي سبق لك والتقيت به للمرة الأولى منذ دقائق قليلة . كلاكما تشاركان في تجربة حول التعلم والذاكرة . كلاكما قرأتما إعلاناً في الصحيفة المحلية حيث جرى البحث عن مشاركين مقابل أجر بالساعة ومقبول . كلاكما تقدمتما وها أنت تجلس هنا وتتعرق بينما الآخر يجلس هناك ويصرخ .

لقد تم السحب بالقرعة وهكذا أصبح الآخر تلميذاً وأنت مدرساً . هكذا وصل الآخر إلى الكرسي الكهربائي وأنت وراء المنصة ذات المزاليج .

أنت لا تعرف شيئاً عن الآخر . لكنك في الواقع تستلطفه ، فقد كان لطيفاً قبل قليل عند إلقاء التحية . والآن ها هو يجلس في الغرفة المجاورة صارخاً .

لقد قيل لكما أنه سوف يجري اختبار حول ما إذا كان العقاب يفيد عند

درس تعابير مزدوجة . على المدرس تلاوة تعابير مزدوجة للتلميذ : مثلاً «رياح» و«شمال» ، «سجق» و«مشواة» . هذه ينبغي على التلميذ حفظها . ثم - وفق ما أمر به مدير التجربة - كان على المدرس تلاوة أول جزء من التعابير المزدوجة ، مثلاً «رياح» ، وكان على التلميذ تكملتها بالجزء الثاني منها ، مثلاً «الشمال» . إذا لم يفلح بذلك فعلى المدرس أن يشغل المزلاج الأول وبذلك يلحق به صدمة كهربائية يعطيه بعدها الجواب الصحيح . إذا أخطأ التلميذ مجدداً فعلى المدرس تحريك المزلاج التالي والأعلى بهدف تحفيز التلميذ وإعطائه قوة ذاكرة أفضل من خلال صدمة كهربائية أعلى . وحتى إذا انتظر التلميذ طويلاً للإجابة أو لم يعط أية ردة فعل فيجب هنا أيضاً تحريك المزلاج التالي لإلحاق الصدمة الكهربائية الأعلى التالية . قبل البدء بالتجربة تماماً تم إعطاؤك أنت ، كمدرس ، صدمة كهربائية خفيفة قيمتها ٤٥ فولت كي يتضح لك ما أنت بفاعل للشخص الآخر .

ثم بدأت التجربة حقاً . في البدء كان التلميذ كفوئاً للمدرس ، بعدها حصلت الأخطاء الأولى ومستوى القوة الكهربائية ارتفع خطوة تلو الأخرى . وأنت كمدرس لم تكن مرتاح البال لأنك كنت تسمع شهقات تزداد قوة مصدرها الغرفة المجاورة . عند الصدمة الخامسة (٧٥ فولت) كان التلميذ قد بدأ بالأنين . عند ٣٥٠ فولت بدأ يرجو للمرة الأولى بإيقاف التجربة . وهنا التفت إلى مدير التجربة وسألته ما إذا كان بالإمكان الآن التوقف . إلا أنه كان جالساً بهدوء وكأنه غير مشارك وأجاب : «التجربة تستوجب أن تتابع» . وأنت تابعت . عند مستوى ١٦٥ فولت أتت الصرخة الأولى . عند ١٨٠ فولت صوت التلميذ من الغرفة المجاورة : «لم أعد أستطيع تحمل هذه الآلام! توقفوا!» . الآن أصبحت عند مستوى أعلى من ٢٠٠ فولت . أنت تتعرق وتلتفت دائماً ومجدداً نحو مدير التجربة . أنت تتعرق أكثر وأكثر وترغب

بإيقاف التجربة لكن ما من ردة فعل منه على طلبك . فهو يجيب بجدية وكأنه غير مشارك : «إن التدابير المتخذة للتجارب تفرض عليك المتابعة» .  
تطرح كلمات أسئلتك التالية والتلميذ لم يعد يجيب إلا بصوت ضعيف ويعطي بعض الإجابات الصحيحة . إلا أنه يعود ويخطئ . والمزلاج التالي بالانتظار . وأنت تتوجس من الصراخ التالي . تلتفت مجدداً نحو مدير التجارب الذي لا يزال جالساً على كرسيه ، هادئاً ، ناظراً إلى الفراغ وكأنه يعاني من الملل . أنت هو من يصرخ الآن : «إنه عمل لا إنساني ، سأتوقف الآن» . مدير التجارب يخاطبك بهدوء دون أن ينظر إليك : «ليس لديك خيار آخر ، عليك بالمتابعة» . هل تتابع؟ هل تشغل المزلاج التالي؟ ما رأيك؟ هل كنت في الواقع ستذهب إلى هذا الحد كما في القصة؟ هل كنت ستتصرف كمعذب مطيع أم كنت ستثور وتأبى متابعة التجربة وتوقفها؟

عند هذا السؤال النظري يستقر رأي الأغلبية على رفض المشاركة . كثيرون يزعمون بأنهم يوقفون التجربة عند سماع أول أنين بالألم ، هذا إذا أقدموا على المشاركة فيها . فهم بالنهاية ليسوا عبيد تعذيب ساديين ، بل أشخاص حضاريون .

## ما الذي يجعل منا جلادين مطيعين؟

في زمن النازية شارك ملايين كثر من الناس في التعذيب ، في القتل ضرباً ، تألماً ، رمياً بالرصاص ، خنقاً بالغاز لملايين كثر من اليهود ، الروما ، البولنديين ، الروس ، الأوكرانيين ، المثليين ، المسيحيين ، اليساريين ، المقاومين والجرمين . فهل كان كل هؤلاء المساعدون للذين يسهل انقيادهم أشخاصاً شريرين ومولودين ساديين؟

إن معظم الوثائق والمحاکمات تظهر عكس ذلك . معظم الفاعلين كانوا

أشخاصاً عاديين جداً . رجال ، في حياتهم المدنية آباء وأزواج عطوفون ، تصرفوا في معسكرات الإعتقال وفي المجموعات العاملة أو بصفتهم خفراء في معسكرات أسرى الحرب على الجبهة الشرقية ، كالبرابرة ، ومحبي التعذيب والشياطين على شكل إنسان : عديمي الرأفة ومتوحشين وقساة القلب . أحد لم يجبر خفراء معسكرات الإعتقال على القيام بأفعالهم . كما ولم يجبر أحد حراس معسكرات أسرى الحرب على أدائهم هذا ، حيث أنهم قتلوا الملايين من الروس والبولنديين . فقد كان بإمكانهم مفارقة المكان والطلب بنقلهم إلى مراكز أخرى .

من الممكن أنه كان قد تم نقلهم إلى جبهة القتال حيث غيرهم . إذ أنه لم يكن هناك حالة طوارئ حقيقية لإعطاء الأوامر بالقتل لا غيره : «قم بعمل التعذيب أو يتم رميك بالرصاص!» . لكنهم شاركوا به . مثل والدي ومثل الملايين غيره .

قبل بعد الحرب العالمية الثانية بأن ذلك يعود إلى تاريخ الألمان المميز . فهم لم يقوموا بثورة لينتزعوا حريتهم مثل الأمريكيين والفرنسيين أو البريطانيين . فالديمقراطية والوحدة أنزلت من عل «وأهديت» إلى الألمان ، من بيسمارك وملك بروسيا الذي تم تنصيبه قيصراً لأجل ذلك . فالألمان لم يتعلموا ، وهذا مذكور في نظرية «الدرب الألماني المميز» ، أن يكونوا مسؤولين عن عقيدتهم الذاتية في مجتمع متخاصم بل نشؤوا كرعايا في مجموعة من التناغم الموصى به . لذلك كان الألمان يميلون غالباً إلى شخصية مستبدّة التركيب والتي تجعلهم ينفادون طائعين لكل أمر أياً كان فحواه سواء فظيماً أو لا إنسانياً .

هناك الكثير مما يدل على وجود مثل هذه الإفتراضية حول وجود دول أكثر إنسانية أو أكثر وحشية . فالنازيون حصلوا في الحرب العالمية الثانية على دعم مختلف جداً في أعمالهم الرهيبة . فهناك دول ، ومنها أناس كثير ،

ساعدوا الألمان عن طيب خاطر في القتل والتعذيب (رومانيا وبولندا) .  
وهناك دول غيرها ، لم يتلق الألمان منها أية مساعدة وحتى أنهم قاوموهم  
بشدة (الدانمارك وبلغاريا) .

مقابل هذه الافتراضية حول الثقافات الوطنية يلاحظ بأن هناك أناس  
كثيرون في كل الدول كانوا قد قاوموا النازيين وساعدوا المضطهدين . هؤلاء  
الناس كانوا في الدول المختلفة بأعداد متفاوتة . وعلى هذا الأساس اختار  
الكثيرون عنصر الشراكة الإنسانية حتى ولو كانت الخلفية الثقافية كإنسان  
غير ملائمة .

وبذلك أصبح الأمر الذي يدفع الناس ليختاروا الشراكة الإنسانية ،  
والمساعدة ، وليقفوا ضد التعذيب أحد أهم المسائل لسير المجتمعات . لقد  
انشغل الكثير من الباحثين في هذه المسألة وما زالوا كذلك حتى يومنا هذا .

يرى أغلبهم بأن السبب يعود إلى التربية . عندما كان الأهل يضربون  
أولادهم ، ولا يذكرون لهم أسباب الموانع بل بكل بساطة يعطون الأوامر ،  
عندما كانوا يربونهم فقط باللوم والعقاب ونادراً بالإطراء والاهتمام ، عندها ،  
وفق ما ورد في نظرية الشخصية المستبدة ، بات حتماً أن يصبح الأولاد الذين  
نشؤوا في هكذا أجواء عند البلوغ أناس مطيعين ، جلادين مطيعين .

ترى نظريات أخرى بأن السبب يعود إلى المناخ الاجتماعي . إذا عاش  
الأولاد والبالغون ضمن ثقافة مدنية ، وإذا كانت الإستقلالية والإنكال على  
النفس تلقى اعتباراً عالياً ضمن المجتمع ، فيعتبر ذلك قدوة حسنة ويؤثر على  
المجتمع بكامله . إذا كانت عقلية الحصول على الرعايا هي التي توصل إلى  
الإرتقاء والنجاح ، بينما تتم معاقبة الإستقلالية ، فعندها يتكون مجتمع  
خاضع ومذلول .

## النتائج غير الإنسانية لتجارب ميلغرام

قامت مجموعة من الأشخاص في الستينات في ستانلي ميلغرام في الولايات المتحدة وتحديدًا في مسقط رأس مبادئ الديمقراطية والشجاعة الأدبية بسلسلة من التجارب التي تطرح السؤال حول هذه المبادئ . نشرت هذه المجموعة في المدينة الجامعية الصغيرة في نيو إنغلاند إعلاناً يتضمن أن الجامعة الشهيرة (يال) تبحث عن مشاركين في تجربة عن كيفية العلم مقابل مبالغ زهيدة . كل من تقدم لذلك كان يقف خلف منصة غنية بأزرار ومزايج كهربائية وفي الغرفة المجاورة صراخ أحدهم .

إذ أن بطاقات السحب لاختيار المشاركين كانت في البداية مغشوشة . ففي كل الأوراق كان مكتوب «مدرّس» . كان الصراخ مسجلاً على بكرة صوتية ولم تكن الأزرار موصولة حقاً بالكهرباء . وفي الواقع لم تكن التجارب تهدف إلى الدرس أو القصاص ، بل إلى امتحان استعداد الناس أن يكونوا معذبين مطيعين أم لا . كانت الرغبة هي استنتاج إلى أي حد يذهب الإنسان العاقل العادي إذا أعطيت له تعليمات بالتعذيب ، فقط دون إجباره على ذلك و فقط تحت سيطرة رداء المختبر الأبيض والعلوم الجامعية .

سأل ميلغرام في البداية ٤٠ عالم نفس في جامعة طبية متقدمة في الولايات المتحدة الأمريكية ، إذاً ٤٠ خبيراً في علم الإنسان . كان عليهم تقدير كم من الأشخاص العاديين سيصلون في التعذيب إلى مستوى القوة الكهربائية القاتلة التي تبلغ ٤٥٠ فولت . ارتأى علماء النفس بأن الأشخاص الخاضعين للإختبار سوف يتوقفون عند ١٥٠ فولت في اللحظة التي تبدأ فيها الضحية بالطلب بتحريرها من الغرفة . لقد كان معدل تقديرهم بأن ٤٠٪ من الخاضعين للتجربة سوف يبقون الضحية تحت الصدمة الكهربائية حتى ولو لم تتجاوب الضحية مع أسئلة الخاضع للتجربة . (في التجربة الشاملة كانت هي

الحال عند ٣٠٠ فولت) ، بينما كان برأيهم عدد الذين يرفعون الصدمة الكهربائية إلى المستوى الأعلى الذي يبلغ ٤٥٠ فولت أقل من واحد بالمائة . على هذه الأرقام كان العلماء متفقين .

ما هو تقديركم؟ كم هو عدد الذين يرفعون الصدمة إلى ٤٥٠ فولت؟ إلى أي مدى تصلون أنتم مكانهم إذا لاحظتم أن العالم لا يأبه لصراخ الضحية وهو يؤكد لكم بأنكم لا تملكون إلا خيار المتابعة؟ عندما سئل الأشخاص الذين خضعوا للتجربة في إحدى مراحل التجارب (على سبيل الافتراض فقط) متى يتوقفون ، أجابوا جميعهم بأنهم سوف يتوقفون عند نسبة كهربائية منخفضة .

هذه التجربة تم تكرارها في ثقافات متعددة وأيضاً في ألمانيا . لقد كان الاعتقاد سائداً بأن الألمان مطيعون بشكل مميز . تم إجراء الاختبار مع النساء لأنه جرى في البداية فقط مع الذكور . وكان من المعتقد بأن النساء اللواتي كن مستعدات لتعذيب الآخرين نادرات جداً .

أكثر من ثلثي الأشخاص الذين تم اختبارهم ، سواء كانوا ألماناً ، أمريكان ، أستراليين أو نساءً ، تابعوا التجربة حتى النهاية . فلم يتوقفوا عند حد ١٥٠ فولت عندما رجتهم الضحية بإيقاف التجربة . ولم يتوقفوا حتى عند درجة ٣٠٠ فولت حيث انقطع صوت أنين الضحية . حتى أنهم تابعوا للمستوى المميت وقدره ٤٥٠ فولت .

لم تكن هناك فوارق تذكر بين الثقافات أو الجنس . فالألمان لم يكونوا أسوأ ، والنساء لم يكن أفضل من غيرهن . كلهم كانوا مستعدين لتعذيب أشخاص مجهولين كلياً من قبلهم وفي وضع غير مأساوي أبداً ، ودون وجود أي دافع للثأر أو للكراهية أو أية وجهة نظر سلبية تجاه ضحاياهم ، بكل بساطة فقط لأنهم كانوا يتلقون مجرد تعليمات من مدير التجارب في زيه المختبري الأبيض .



نادراً ما فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم وبهجة ، فقد كانوا خلال ذلك يتعرقون ، يحتجون ويرتجفون ، يبدأون بالتأتأة ، وأظهروا كل علامات الضغط النفسي . إلا أن أكثر من الثلثين بينهم تابع التعذيب إلى النهاية المريرة عندما رأى أن مدير التجارب بقي هادئاً طالباً منهم المتابعة بصوت غير مكتثر بما يجري . حتى أن القليلين منهم ، والذين توقفوا عن المتابعة من قبل ، عادوا وأكملوا إلى أن وصلوا إلى مستوى من التيار الكهربائي لم يقدره قبلاً أحد من الخبراء ، وأيضاً لم يعتقد أحد من المشاركين في التجربة مسبقاً بأنه قد يتعدى مثل هذا المستوى .

عندما يشارك أكثر من ثلثي المشاركين في التجربة ومن ثقافات وتركيبات مختلفة ، ويصل إلى هذا الحد ، فلماذا إذاً علينا أن نكون إستثناءً؟ يبدو أنه من المؤكد أن الثلثين منا ، أو بالأحرى ثلثي داخلنا ، مستعد أن يطيع إلى النهاية ، عندما نرى أن أكثر من ثلثي المشاركين في التجربة تابع إلى نهايتها .

إذا حالقنا الحظ يكون الثلث المتبقي بداخلنا ، الذي نستطيع اعتباره الثائر والشجاع ، واعياً ويقظاً في حال وقعنا في ظرف مشابه . وهنا نستطيع التمني أن نُعتبر أبطالاً وأن نرفض التعذيب .

ماذا يسمى هذا الذي يجعل منا أبطالاً وما يجعلنا معذبين؟ إنه لسؤال مهم بالفعل . لأن الإجابة على هذا السؤال تساعدنا باستعمالها لتكوين مجتمعات لا تسمح بحدوث مثل هذه التجارب أو تلك في زمن النازية . هل السبب هو الأوضاع أم الشخصيات؟ كانت تجارب ميلغرام هي المهمة الإستنتاجية لذلك . أهم نتائجها كان وضع شروط بموجبها يستطيع أي كان رفض التعذيب كلياً وبدون أية تعقيدات . لأن المجتمع الذي لا يحتاج إلى أبطال هو أفضل بكثير من المجتمع الذي لديه أبطال كثر . بالطبع كان ميلغرام

يغير دائماً ومجدداً شروط التجربة ليمتحن معطيات مختلفة ليستلخص من نتائجها ما يحتاجه الإنسان ليتمتع بالشجاعة .

### فرضية الرحمة

راهن ميلغرام بدءاً على الشفقة . لقد جلب الضحية إلى الفاعل في الغرفة ، أجلسه مقابله وأجبر الفاعل ليس فقط على سماع العذاب الذي يسببه له ، بل أيضاً على رؤيته بأمر عينه . وبالفعل هبطت نسبة المستعدين للقيام بهذه التجربة حتى النهاية المريعة إلى ٤٠٪ . لكن هذه النسبة كانت لا تزال مرتفعة .

ثم وضع ميلغرام شروطاً أصعب . كانت الضحية تنزع الأسلاك عند انتعاضها من شدة الألم وكان على الفاعلين بأنفسهم إعادة وضعها عليهم وتثبيتها . هنا هبط بعض الشيء عدد المستعدين للقيام بالتجربة حتى النهاية .

بعدها اضطر الفاعلون إلى الضغط بأنفسهم على رؤوس الأسلاك مع كل صدمة كهربائية للضحية . وحتى هنا أكمل ٣٠٪ من المشاركين في التجربة هذه العملية حتى النهاية المميته المؤكدة عند مستوى ٤٥٠ فولت .

حتى الشفقة لم تكف لمنع التعذيب بشكل كامل .

وحتى لو أنه تم نقل الشفقة إلى مجتمعات حديثة ، فهذا لن يكون وسيلة للحؤول من القتل . ففي تلك المجتمعات تقل المناسبات التي يعيش المرء فيها العذاب الذي يتسبب به للآخرين باستمرار . في المجتمع المالي ذو التقنيات العالية لا يحتاج الناس أن يلتقوا ببعضهم بشكل مباشر ليعذبوا بعضهم . في الحروب الحديثة بالكاد يرى الخصوم بعضهم . فهم لا يلاحظون القتل . إنهم يضغطون فقط على أزرار ويلاحقون قذائف ذات تأثير هائل فقط

ضمن مربعات مرسومة على شاشات يحتملون وجود الخصوم فيها أو يتم كشفها بالرادار . هناك تبحث القذيفة من تلقاء ذاتها عن الهدف المميت . كل شيء يماثل ألعاب الحاسوب التي يتم التحكم بها بمهارة وانتباه عال لتحقق نسبة إصابات مرتفعة دون ندم أو أي شعور بالبغض .

اقتصادياً يتم تبليغ الرؤوس بفصله أو بإنزال رتبته من بعيد بواسطة الوسائل التقنية (البريد ، الهاتف ، الفاكس ، البريد الإلكتروني ، الرسائل الهاتفية) مع التشديد بأن السبب ليس شخصياً بل للأسف قسرياً بداعي أوضاع السوق . وهنا ليس من داع للبغض أو للشفقة . فذلك يجري بشكل رسمي وغير شخصي .

كما وأنه يتم القضاء على المؤسسة المعادية بطريقة غير مباشرة . إذ أنه ما من حاجة بالتكلم معها . فالإفلاس يأتي من خلال السوق . فعندما يُدني أحدهم أسعاره إلى ما تحت كلفة الإنتاج للشركة المضاربة ، فينتهي أمر هذه الأخيرة دون أن يحدث أي جدل أو كلام معها . في هذه الحال ليس للشفقة أي دور .

## فرضية التربية

راهن ميلغرام في الخطوة التالية على التربية . من المحتمل أن يكون المطيعون مختلفين عن غير المطيعين من خلال تربيتهم . وقد يكون بالمستطاع تغيير المجتمع وفقاً لذلك من خلال تشجيع نمط تربوي معين . في الواقع أظهرت الاختبارات الشخصية والأبحاث المتعلقة بالسير الذاتية وجود ميول شديد إلى وجهات النظر الاستبدادية عند المشاركين المطيعين . منا وأنهم أدوا الخدمة العسكرية مراراً ، وأمضوا سنوات مدرسية أقل بكثير ، وعملوا في مجالات تقنية العلوم الطبيعية لزمان أطول مقارنة مع المهن الاجتماعية ،

إضافة إلى أنهم كانوا أصغر سناً .

لم تكن هذه النتائج سوى فروقات إحصائية ، وهذا يعني بأنها بينت أي من الخصائص عند المطيعين محتمل ظهورها أكثر من تلك عند الممتنعين . إلا أن هذه الفروقات لم توصل إلى إيضاح لذلك . والسبب يعود إلى أنه من بين المشاركين من الممتنعين عدد كاف من الشباب الذين أدوا الخدمة العسكرية وعملوا في وظائف مهنية وحملوا مستوى تعليمي متدني . ما كان سبب اتخاذهم قراراً ضد التعذيب؟ بماذا كانوا يتمتعون دون غيرهم؟ قد لا يكون ذلك خصائص الشخص بالذات بل ميزات الوضع التي تقرر ما بين الطاعة والرفض .

### أهمية إظهار السلطة وتبيانها

في الواقع كان عدد المطيعين يهبط بشدة عندما كان الوضع يتغير بإحداث ارتياب في نفوذ مدير التجربة . نقل فريق عمل ميلغرام مكان التجارب من قاعات الجامعة الفائقة الشهرة إلى عنبر قذر في أحد المصانع . هناك هبطت حالاً النسبة المئوية من عدد الذين تابعوا التعذيب حتى النهاية وتحديداً إلى دون الخمسين بالمائة ، وهذه النسبة توازي تقريباً عدد الذين تابعوا التعذيب من قبل حتى المواجهة الأكثر شدة (فرضية الشفقة) .

إنها تعاليم يتبعها كل حاملو السلطة منذ عهود كثيرة وستبقى كذلك . على السلطة أن تتألق ، عليها أن ترهب وعليها أيضاً أن تتباهى . يجب عليها أن تبدو منيعة ، خالية من الأخطاء وحكيمة إذا أملت أن يُعترف بها كسلطة سيادية . وحتى العلماء الذين شاركوا في تجارب ميلغرام بقوا مطيعين رغم الجهد لأنهم عملوا باسم إحدى أشهر جامعات الولايات المتحدة ، جامعة (يال) ، وباسم العلوم ، ولأن دورهم كان يتناغم مع ما كان يتوقعه الناس من

علماء ينتمون إلى جامعة شهيرة . تثبتّ السيادة نفسها من خلال الدور السيادي ومن خلال الحضور السيادي . ولهذا السبب كان سابقاً لدى منازل الملوك والقيصرة ورؤساء الكنائس ، اليوم مجالس النواب ، المحاكم ، الوزراء ورؤساء الوزراء تقاليدهم وأرديتهم الغربية ، وطقوسهم البهية المعقدة ، منشأتهم الفاخرة بنائها المخيف ، ومواكبها واستعراضاتها . هذا الجزء من السياسة الرمزية يولد الطاعة على طول النهج تجلب الخوف وتعقد الشجاعة الأدبية .

تظهر السيادة في الديمقراطيات الحديثة أكثر تواضعاً . إلا أن مجلس النواب الجديد في برلين ، مكتب المستشار الألماني الاتحادي ، قصر بل فيو ومكتب الرئاسة الجديد ، دخول القضاة الدستوريين بردائهم الأحمر ، مواكبات الشرطة لعربات الدولة ، تدرجُ الرتب في الدوائر والألقاب لا تزال تعرض ظاهرة رمزية رائعة لسلطة الدولة والتي ترهب كفاية لتؤمن للسلطة الطاعة اللازمة لتحويل هذه السلطة إلى سيادة . الشجاعة الأدبية ، التفكير الذاتي وحريةه والمقاومة تصبح عندها عديمة الاحتمال .

إلا أن بيان وتبيين السلطة بشكل أقل تجبراً وتكبراً ، حسب ما أظهرته التجارب ، يُعتبر وصفاً أقل تأثيراً على طاعة المعذبين ، مثل الرهان على الشفقة على الضحايا .

### البعد يؤدي إلى عدم الشفقة

هذا ما أظهرته بشدة التغييرات التالية في ظروف التجارب : بدلاً عن وجود «مدرس» واحد في القاعة ، فقد تم وضع مدرس ثان معه «مدرس مضطلع» . هذا المدرس الثاني كان يشغل الصدمات الكهربائية ، بمعنى آخر كان يفتعل إلحاق العذاب المرير . بينما المدرس الحقيقي ، ألا وهو الذي يخضع للتجربة ، كان فقط يعطي الأوامر للتعذيب .

في هذه الظروف ارتفع عدد الذين خضعوا للتجربة إلى ٩٢,٥٪ ، أولئك الذين سمحوا شخصياً وبأمر منهم بإخضاع شخص مجهول من قبلهم وعلى الأرجح بريء موجود صدفة هناك لصدمات كهربائية مميتة تصل إلى قيمة ٤٥٠ فولت .

وهذا يوضح سبب عدم خشية الضارين الذين يطاردون الأجانب على طرقات المدن الألمانية بأن يجد ضحاياهم معونة لدى السكان . إنه لمن الأسهل بكثير أن يجد الإنسان حججاً لنفسه عندما يكون الشرير شخصاً آخر .

لكن إذا عمل أحدهم على أن يكون قدوة وعارض أوامر السيادة ، فهذا الأمر يُحدث أعجوبة . فعندما أحضر ميلغرام « المدرس المضطلع » ألا وهو المدرس الثاني ، وشاركه في التجارب ، وهذا بدوره عارض باكراً تنفيذ إعطاء الصدمات الكهربائية ، فعندها تابع فقط ١٠٪ من المشاركين في التجربة حتى النهاية . ففي حضور الشجعان يصبح أيضاً الجبناء شجعان .

إن المناخ الاجتماعي العام ، والثقافة السياسية ووضع الشجاعة الأدبية هي عناصر مهمة لتحديد المجال الذي يملكه المعذبون . فالمجتمع المدني المعارض والرافض يضع حداً لسلطتهم . ولهذا السبب لا تستطيع الحكومات في مجتمعات ذات التقاليد المبنية على المجتمع المدني مثل إنكلترا ، أمريكا وفرنسا أن تسمح لنفسها بسهولة استباحة السيادة لنفسها كما هي الحال في روسيا ، يوغوسلافيا وألمانيا ، قبل أن تطور لنفسها تقاليد ديمقراطية رافضة .

### عندما يخفق الحكم الاستبدادي

كان دور المدرس ، بصفته معبراً لتصرف المعذب ، قد وصل إلى حده الأقصى . إذ أن كل الطرق والاحتمالات الممكنة قد تمت تجربتها وكانت

النتيجة بأن الرهان يجب أن يكون على الشجاعة الأدبية . ولكن من أين مصدرها إذا لم تكن للآن موجودة؟

وهنا لم يتبق لفريق ميلغرام العلمي سوى حل واحد . فقد اضطر لتغيير حال التجارب لجهة إدارته . هذا الأمر كان شيقاً ، لأن نقل حال التجارب إلى المجتمع يعني أن الحكومة في المجتمع توازي وتشابه إدارة التجارب . فهل كان هناك متغيرات تؤدي إلى أن لا يجعل الناس من أنفسهم جلادين مطيعين؟

في المحاولة الأولى أعطى مدير التجارب أوامره ثم غادر القاعة . بعدها بقي من المشاركين ٢٥٪ الذين يُعتبرون مواطنين مطيعين ، كونهم تابعوا التعذيب من تلقاء أنفسهم إلى النهاية ودون مراقبة . لكن ٧٥٪ توقفوا قبل النهاية عن المتابعة . لم يلتزم الكثيرون بقواعد التجربة . فقد قدموا فقط صدمات كهربائية خفيفة أو أملاوا على التلامذة الأجوبة .

إنها أيضاً نتيجة أبحاث تتعلق بدراسة الجرائم : يخلّ بالقواعد من يزعم بأنه سينجو من ذلك دون عقاب أو دون التعرف إليه . ولذلك إنه لمن المهم لترابط المجتمع وأمن المواطنين أن يراقب ويطبّق التقيد بالأنظمة ليس فقط من قبل الشرطة التي لا تستطيع أن تكون في كل مكان بل وأيضاً من قبل المواطنين والمواطنات أنفسهم بشعورهم تجاه القانون والعدالة . إلا أن هاتين الأخيرتين يتم إتباعهما أقل من السيادة نفسها .

تجربة أخرى من تجارب ميلغرام تظهر هذا المبدأ . هنا تم استدعاء مدير التجارب الفعلي هاتفياً إلى خارج القاعة بعد أن أعطى التعليمات الأولية وتحديداً قبل أن يعلن أن كل إجابة خاطئة تؤدي إلى صدمة كهربائية أقوى . ثم ناب عن مدير التجارب أحدهم ودخل القاعة معلناً هذه القاعدة .

تحت هذه الشروط تابع ٢٠٪ من المشاركين بالتجربة حتى النهاية ، عدد أقل مما هو الحال عندما كان مدير التجارب غائباً كلياً . وهذا الأمر يدعو

للاستغراب . فهو يظهر الطاعة لمدير التجارب الغائب ، والذي يُعتبر صاحب القرار ، ولو كان خارج القاعة . بينما تكون الطاعة له أقل إذا لم يكن مقررًا بالملق ، لأنه يفرض قواعد جديدة ، وإن كان موجوداً في القاعة .

بناء على ذلك من المفروض تغيير شيء من مشروعية السيادة إذا أردنا كسر الطاعة التلقائية لدى الجلادين المطيعين .

### الخلاف كشرط للشجاعة الأدبية

لهذا الغرض كلّف ميلغرام مديرين يعارض بعضهما البعض . ابتداءً من ١٥٠ فولت طلب أحدهما بوقف التجربة بينما الآخر أصرّ على متابعتها . من بين ٢٠ مشاركاً بالتجربة قطع واحد التجربة حالاً . ١٨٪ من بينهم تابعوا لدرجة أعلى ، إلا أنهم عادوا وقطعوها . شخص واحد فقط تابع لدرجة أخرى أعلى . ما من أحد من المشاركين تابع التجربة حتى ٤٥٠ فولت ، إذن صفر بالمائة ، حيث تابع ما بين ٢٠٪ و ٩٢,٥٪ وفق كل الشروط الأخرى حتى النهاية المريرة . وهذه كانت نتيجة مميزة ومشجعة . ماذا يعني هذا؟

يجب أن لا ينتظر المجتمع الشجاع والإنساني أبطالاً ليصبح حقيقة واقعية . فالشجاعة والإنسانية عند الناس لا تتعلق بصفاتهم فحسب ، بل بتنظيم المجتمع بذاته . لا تستطيع الشجاعة والإنسانية أن تنمي نفسها بنفسها إذا كان هناك سيادة واحدة فقط تنطق بصوت واحد . فهنا تخالف الناس وتتبع ، مع أنها ممتعضة إنما تتبع ، حتى الأوامر الأكثر قذارة . وسرعان ما تتغير الحال كلياً ، حالما يتواجد سيادات متعددة أمره ناهية ومتعارضة . وهنا يضطر الناس للتفكير والإقرار لأنفسهم ، وعندها تختار الأغلبية الإنسانية .

لا تتمتع فرنسا ، إنكلترا وأمريكا بالمجتمع المدني الأفضل لأنها تحوي أناساً شجعاناً . إذ أن نتائج تجارب ميلغرام لم تكن أفضل منها هناك في



ألمانيا . فهذه الدول تحوي أناساً شجعاناً أكثر لأنها تحوي منذ قرون عديدة توزيعاً للنفوذ وديمقراطية برلمانية تتعارض وتختلف فيها السیادات . وهناك يحصل منذ قرون عديدة بالتحديد ما يكرهه الكثير من الناس في السياسة . إذ تختلف الحكومة والمعارضة ، تختلف الحكومة مع البرلمان ، البرلمان الأول والثاني يتعارضان . المحكمة الدستورية تتعارض مع البرلمان والحكومة . وعند الانتخابات تتخاصم الناس حتى الموت . تُحلّ الحكومة وتتابع الحكومة الجديدة مع المعارضة الجديدة الخصام من جديد . وهذا يجبر المواطنين والمواطنات بتكوين صورة لهذا الوضع وبالإقرار لأنفسهم .

هذه المرة لم يكن الملاك إبليس هو الذي أوصل إلينا هذه المعلومات المحيرة ، بل العالم الإجتماعي ميلغرام . نحن في ألمانيا ، الذين نراهن كثيراً على التناغم والتوافق والذين نريد أن يتم إقرار كل شيء بشكل توافقي من الجميع ، علينا أن نفتنح بأن الخلاف الذي نبغضه في مجال السياسة والذي يجعلها عبئاً علينا ، هو بذاته يكون الشروط التي بدونها لا نملك إلا القليل من الحظ لنكون أناساً صالحين .

إذا كانت قاعدة بريخت صحيحة ، بأن المجتمع الذي لا يحتاج إلى أبطال أفضل بكثير من الذي فيه أبطال كثر ، فهذا يعني بأن المجتمع الخلافى أفضل من المجتمع الذي نصبّو ونتشوق إليه ، ألا وهو مجتمع التناغم والحقيقة . فالمجتمع المعتاد على الخلاف لا يحتاج إلى أبطال ، بل فقط إلى المشاركة بالتفكير .

## الفصل الخامس

### ورقة المليون جنيه

#### أو الفرق بين السياسة الرمزية والسياسة العملية

في قصة أخرى لمارك توين يُذكر أن عاصفة هوجاء ساقط البطل ، وهو أميركي ساذج وحاذق من سكان مدينة صغيرة ، فوق المحيط الأطلسي بعيداً باتجاه الشرق ، بعد أن خرج على متن قاربه الشعاعي ليمضي وقت فراغه ولم يتبق له آنذاك في ظل الرياح الغربية المسيطرة سوى أن ينقذ نفسه على متن سفينة عابرة هناك صدفة . لكن هذه كانت في طريقها نحو مدينة لندن . وهكذا وقع أميركي المدينة الصغيرة الساذج الفقير في متاهات هذه المدينة الكبيرة . لأن قبطان السفينة التي أنقذته تركه يعمل فيها لقاء المأكل والمسكن وتركه على متن السفينة في لندن ، بدون مال ، بسبب متابعة رحلته البحرية باتجاه إفريقيا . طافه هذا الأميركي من المدينة الصغيرة في أنحاء شوارع لندن باحثاً عن طعام ، حتى أنه كان ينحني في وضعه البائس ليلتقط بقايا طعام مرمي على الطرقات .

وكان أن كلمه خادم بملابس رسمية داعياً إياه إلى الذهاب إلى أحد المنازل الأرستقراطية ولبى الدعوة . هناك استقبله رجلان مسنان في إحدى الصالونات الفخمة وسلماه ظرفاً مع التمنيات والإرشادات بعدم فتحه قبل المساء . ما أن غادر المنزل لم يستطع الأميركي الجائع كبح فضوله وأمله بتغيير وتحول مصيره وفتح الظرف . وجد بداخله ورقة نقدية كبيرة لا يعرفها . تأكد

من صحة أماله وأعاد الظرف إلى جيبه وبحث عن حانة حيث طلب وجبة طعام ضخمة تشبعه . قدّر صاحب الحانة شكله ومظهره المهلهل ورفض تلبية طلبه وتقديم الطعام له . وهنا سحب الضيف العجيب الظرف من جيبه وأظهر لصاحب الحانة الورقة النقدية . تجمد هذا الأخير ، عندها ولم يصدق ما رأى . فحص النقد وحدّق بضيفه مستغرباً ، أعادها له وتحول فجأة إلى مضياف متذلل لطيف ، حيث أنه قبل طلب ضيفه وقدم له مشروباً مجاناً كذلك . ذلك أن الورقة النقدية كانت ورقة مليون جنيه . طبعاً لم يستطع صاحب الحانة فكها . أحد لم يستطع ذلك . ولكن القرض لا يشكل أية مشكلة أمام شخص ثري كما بدا هو ، حتى ولو كانت ملابسه غريبة . على كل الأحوال الأمر سيان عند الأمريكيين ، فلا نعرف أين نحن منهم .

وهنا حدق الأمريكي في ورقة النقد ولاحظ إلى أي ثراء وصل من حيث لا يدري . من المؤكد أن خطأ ما قد حصل . لكنه وجد في الظرف رسالة ورد فيها أن مالكيها الخيرين راهنوا مع بعضهم ، وقد احتاجوا إلى مساعدته كي يستقروا على رأي . المطلوب منه أن يحتفظ بالورقة النقدية ويدارها لفترة شهر . فهو أعطى انطباعاً جيداً وصادقاً ولذلك وضعوا فيه الثقة العمياء بأنه سيعود إليهم بعد انقضاء الشهر مباشرة مع المال ويخبرهم ماذا حصل وجرى له خلال ذلك الشهر . بعد تلقي هذا الخبر اندهش وجلس مصعوقاً دقائق طويلة ، إلا أنه تابع طعامه بشهية كبيرة ووقع لدى صاحب الحانة على سند دين وأسرع يعدو إلى المنزل الذي أعطي فيه ذلك المظروف .

إلا أن أحداً لم يرد على طرقاته القوية . انتظر وبقي يحاول مراراً وتكراراً . ولكن ما من جواب . على ما يبدو لقد أصبح مالكاً للشهر القادم لورقة نقدية قدرها مليون جنيه . ولم يعد بإمكانه الفرار من إدراك ذلك .

ذهب الرجل إلى أحد البنوك ليصرف النقد . وحتى المصرف لم يكن لديه

نقد صغير للصرف . عوضاً عن ذلك أقرّ له برصيد بقيمة الورقة النقدية مقابل إيداعها لديه . وبذلك هندم ملابسه ، وانتشر صيت غناه بسرعة في أنحاء المدينة . حيثما حل كانوا يعاملونه بلطف وود ، ذلك المليونير المضحك من أمريكا . كانوا يدعونه لزيارتهم ويعرضون عليه عروضاً مربحة لاستغلال الأموال واستثمارها في مشاريع مختلفة .

في إحدى الحفلات المقامة على شرفه التقى بصديق له من أمريكا . كانت أسهم هذا الأخير قد هبطت وخسرت من قيمتها بشكل جذري بسبب قلة المال وقروض مستحقة وكان على وشك إعلان إفلاسه . استطاع مساعدته ودعمه بالسماح له بإعطاء اسمه لدى مموليه ككفيل وضامن . تعويضاً على ذلك أعطاه الصديق صندوقاً كبيراً من الأسهم التي فقدت قيمتها . إلا أن قيمتها ارتفعت بعد أيام معدودة بشكل سريع بعد معرفة خبر الضمانة على القروض وتم عقد صفقات أدت إلى ارتفاع تال لقيمة الأسهم . قبل انتهاء الفترة المحددة ، وهي الشهر ، أصبح الثري غير الواقعي ثرياً حقيقياً . استطاع أن يعيد ورقة المليون جنيهه إلى مالكيها وأن يغرف من الثراء والثروة التي كسبها وجناها من خلالها . أصبح شخصاً آخر ، يتنقل في عالم لندن الكبير وواجهاتها بتغافل وثقة تامة .

وعلى هذا تماماً شارط وراهن مالكو الورقة النقدية . أحدهم كان على ثقة بأن ورقة المليون جنيهه لم تعد تفيد لشيء لأن ما من أحد يستطيع صرفها . فمالكها سوف يتصور جوعاً رغم ثرائه ولن يستطيع في حالته تلك أن يغير شيئاً رغم المال الذي في جيبه . خلاف ذلك راهن شريكه بأن رمز المال الكثير له نفس التأثير كالمال الواقعي . فمالك وحامل الرمز لا يجب أن يثبت حقيقة جوهر الرمزية هذه . إذ أن الرمزية تكفي لتساعد في التحقيق والحصول على الثراء والاحترام .

## السياسة الرمزية والسياسة العملية

كذلك هي الحال في السياسة . المظهر الصادق الذي هو الرمز المقنع للنجاح والكفاءة ، بالإمكان أن يؤثر جيداً وبنفس القدر مثل النجاح الحقيقي والكفاءة الحقيقية . نستطيع القول حتى : أغلب الانتخابات يتم الفوز بها من خلال نجاح رمزي وليس من خلال النجاح في السياسة العملية الحاصلة واقعياً . فإذا نجحت إحدى الأحزاب بإعطاء انطباع الكفاءة والأمانة والأمان فإنها تفوز بالانتخابات دون أن يكون هناك علامة بما تستطيع فعلياً أن تقدمه من جدارة وأمانة وأمن .

لأن الناس تعنيهم الرموز أكثر من الحجج والبراهين المنطقية وتؤثر بهم أكثر لأنهم انفعاليون . فالرموز دون أداة وبشكل مسهب وتجعل منه مؤهلاً للانفعال دون أن يعرف ما السبب (؟؟؟؟) . من هذه الرموز مثلاً المستشار الألماني بلامحه المليئة بالهموم وبنفس الوقت بالثقة بالنفس والكفاءة عندما يقف بين حواجز أكياس الرَّمَل على ضفة نهر الألب إثر الطوفان ، أو مثلاً صورة المرشح المنافس مع زوجته الشقراء أمام سفح جبل خلاب في بافاريا . تجلب السياسة العملية لأناس كثيرين تحسينات في مجالات متفرقة إذا تمت بنجاح . صحيح أن هذه التحسينات تدوّن فكرياً ويتم العيش معها بانفعال إلا أنها تلم على وجه التقدير فقط بجزء صغير من فترات ومراحل الحياة وليس أبداً بالشخص بكامله . فالسياسة العملية تتسبب لسنوات عديدة بسوء مستمر وبالرغم من ذلك يبقى المعنيون مرتبطين بحزبهم من الناحية الانفعالية الرمزية . وهكذا بقي معظم الفلاحين الناخبين أوفياء لحزب التجمع المسيحي الديمقراطي مع العلم أن مدخولهم خلال عهد هلموت كول هبط بشكل متواصل مقارنة مع فئات اجتماعية أخرى . كذلك هي الحال في صناعة الفحم والحديد الصلب في مناطق الرور والساار التي كانت تعاني من

خطر إغلاق مصانعها مرة تلو الأخرى منذ أواسط الستينات وبقيت بالرغم من ذلك وفية للحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني .

السياسة العملية هي العملة الصغيرة للسياسة ، فهي غير ضوئية ، غير انفعالية وتافهة . فقد تأثر الناس بها فقط في مجالات محدودة وليس كشكل شامل وانفعالي كما هي الحال في السياسة الرمزية . فهذه الأخيرة هي السطوع والمجد والشعاع الكبير الذي يبعثه التصرف الجيد . ولذلك تعتبر السياسة الرمزية عادة مفتاح النفوذ . من خلالها يتم الفوز في الانتخابات . صحيح أن بنية البلاد وتغييراتها تعتمد على السياسة العملية ولكن هذه الأخيرة لا تفوز بقلوب الناس . ومن هنا تظهر أهمية السياسة الرمزية . فهي تربط الوفاء ليس فقط بسياسيين منفردين أو بالأحزاب ، إنما بالنظام السياسي كله .

### السياسة العملية الناشطة

في الواقع ليس بالمستطاع إنجاز صورة شاملة واقعية عن السياسة العملية ، لأن أكثر من ٦٠٠ نسخة دستورية يتم مناقشتها في البرلمان في فترة الانتخابات لمدة ٤ سنوات ويتم تقييمها عند الانتخابات فقط حوالي ١٠٠ منها تنجح في الوصول إلى رئيس الجمهورية الاتحادية وتصبح حقيقة جزءاً من القانون . إلا أن كل هذه النسخ تداول وتخصر ضمن اللجان وتخضع لآراء المتخصصين والاتحادات المهمة بذلك . بالإضافة إلى ترتيبات أخرى لا تحصى .

أكثرها يعالج قضايا وتفصيل خاصة وثانوية . مثلاً المقياس الأدنى للموز في التجمع الأوروبي أو المواد الإضافية المسموح بها للنبيذ النوعي . هذه التفاصيل مهمة في الواقع للجهات المعنية ، مثلاً الاقتصاد الزراعي . لذلك

عينت هذه الأقسام ، مثلاً الاتحادات الزراعية ، عملاءها اللوبيين على مقربة من السياسيين أو بشكل أفضل عينتهم مباشرة في المجال السياسي كأعضاء في البرلمان . بنظر الأشخاص الآخرين تعتبر هذه المسائل غير هامة وسخيفة . أما غيرها من المسائل ، مثلاً تعديلات قانون التقاعد ، فهي تغير تقريباً حياة الجميع ، لكنها موضوع معقد لدرجة أن الخبراء وحدهم يعرفون ويفهمون تفاصيلها . هذا هو الحقل الاعتيادي للسياسة العملية . إذ أن مسني القوانين يستمعون إلى الخبراء والمعنيين بالأمر الذين ينشغلون بهذه المواضيع يوماً وغالباً ما يكونون غير أبيين إطلاقاً بالناحية السياسية الحزبية بل كعملاء لوبيين يمثلون اهتمامات مجموعة معينة ولا يهتمون إلا بالنتائج . تتم الاستشارة والتداول بالتقارير المتضاربة والمعدلة لإقرار التفاصيل التقنية والبحث عن إجراءات تتضمن إذا أمكن كل الحالات بشكل عادل ومفيد .

غالباً تكون مشاريع القانون عبارة عن تدابير نوعية تخص فقط قطاعاً صغيراً من السكان . تارة المزارعين ، ثم أطباء الأسنان ، أصحاب المطاعم ووكلاء الشحن أو مربى السمك النهري . غالباً ما تكون قوانين تعديلات ليس لها حتى صلة واضحة بالتدابير السابقة . كل مشروع قانون يتضمن ملحقات بالأسباب ، بالخبرة ، حسابات الميزانية وتصويت الأقليات . لا يستطيع حتى الثواب إنجاز واستعراض السيل الورقي الذي يصلهم كمطبوعات نيابية أسبوعياً .

لذلك يجب أن يتم تنظيم السياسة العملية بتوزيع الأعمال . ففي كل حزب ينبغي على نوابه التخصص في مجالات محددة والتدرب فيه جيداً لدرجة يستطيعون فيها الصمود أمام البيروقراطيين في الوزارات من جهة ومن جهة أخرى أمام العملاء الذين لا يقضون حياتهم إلا في التعمق في مجال مفصل ومحدد . إن مهمة العملاء الأساسية هي أن يكونوا مندوبين

للجمعيات ، مثلاً الزراعية أو الفروع الصناعية والنقابات ، وأيضاً لمجموعات حماية البيئة مثل غرين بيس و بوند ، الذين تقتصر مهمتهم على الاهتمام بأن تكون التدابير والقوانين آخذة بعين الاعتبار اهتمامات جمعياتهم قدر الإمكان أو على الأقل أن لا تكون سلبية على اتجاههم . فهم يتدعون عادة خبرة موضوعية ويستحدثون موظفين وغالباً ما يؤمنون أموالاً طائلة ليفرضوا مآربهم وليقدموا اهتماماتهم بصفتها أنها مصلحة عامة . فيإمكانهم الحصول على تقارير من خبراء وخبيرات ذوي شهرة عالمية فائقة . وهم يستطيعون جعل أي موضوع من خلال حملات دعائية موضوعاً للسياسة الرمزية ويقصون هذا الموضوع عن أكفاء خبراء الأحزاب . صحيح أنهم لا يستطيعون عادة شراء سياسيين في مراكز اقتراع معينة من خلال تبرعات لمعارك انتخابية واستثمارات ، إلا أنهم يستطيعون إجبار هؤلاء على التفكير ملياً قبل اتخاذ القرار في إحدى المسائل التفصيلية ضد مصلحة يديها بشدة هكذا عميل . إنه من الصعب الوصول ضد سلطتهم وخبرائهم . لحسن الحظ توجد في أغلب المسائل مصالح متعارضة من الطرفين ، بحيث يوقع خبراء وخبيرات الأحزاب بين العملاء المتباينين كي يستفيدوا بأنفسهم من المعرفة لدى هؤلاء واستعمالها ضد أولئك . لكن عليهم التوصل إلى ذلك بأقل عدد ممكن من الوسائل والموظفين مقارنة مع العملاء .

عندما يتولى أحد منهم منصب وزير في إحدى الوزارات عندها يصبح في خدمته جهاز حكومي وخبراء يعملون لديهم . إلا أن الوزراء والوزيرات والبرلمانيين لا يكونون أكيدين إذا كان هؤلاء البيروقراطيون الوزاريون يتبعون مطالب موكلهم الحزبية والسياسية . غالباً يكون للإدارة معالمها الخاصة . فالوزراء يأتون ويذهبون إلا أن الإدارة تبقى . وبما أن القيادة السياسية للوزارة لا تهتم إلا بمسائل مختارة ، يبقى الكثير من المسائل التفصيلية من شأن الإدارة .



ولهذا السبب لديها هي أيضاً جهاز خبراء ونفس طويل ، لا يستطيع النواب مجاراتها .

أساساً ، على النواب بأنفسهم إنجاز كل أعمال السياسة العملية ، كالسياسة المالية ، وذلك أمام الخبراء المجتمعين وهيئات الموظفين التابعين للعملاء والإدارة . وفي الدائرة الانتخابية التابعة لهم بالكاد يهتم أحدهم بهذا العمل المنهك ، إلا إذا كان هناك خبراء في هذا المجال أو معنيون مباشرون . وبالرغم من ذلك فإن مستقبل أي وأية نائب يتعلق بعمله الجيد ضمن اللجنة النيابية . ذلك لأنه في منافسة مع خبراء وخبيرات الأحزاب الأخرى في اللجان والاجتماعات لا يجب أن يعرضوا أنفسهم للسخرية . فكل خطأ يصدر تتم ملاحظته ويصبح قيد التداول ، الخبرة غير الكافية ، الجهل ، ضعف في سياسة المفاوضات ، تحضير غير كامل ، كل هذا يستغله خبراء الحزب الخصم ، خاصة من المنافس السياسي في الحزب الذي ينتمي إليه شخصياً لتحقيق مآربه السياسية .

إلا أن السياسة العملية في برلين لا تفوز بأية انتخابات . فهذه يتم الفوز بها في الدوائر الانتخابية . تُعتبر هناك السياسة الرمزية : الحضور في احتفالات الإطفائية ، يوبيلات النوادي ، في افتتاح كرمس أو معرض ، في استقبال أحد الزوار البارزين من الخارج في دار البلدية ، أو في افتتاح طريق جديدة . وعند كل حدث يأخذ فيه الصحفيون صوراً ، على السياسي المعني الظهور في المقدمة أثناء التصوير . بالكاد يهتم أحدهم في برلين بعمل اللجان . ولهذا السبب تدوم فترة بقاء النواب في برلين سنوات عديدة ، وهم لا يقدمون شيئاً وجيهاً في السياسة العملية ، لكنهم يحققون في دوائرهم الانتخابية أكثرية ساحقة . السياسة العملية ضمن اللجان لها أهمية إذا كان الهدف هو تحقيق نجاح ضمن الحزب الذي ننتمي إليه . وهنا المهم أن يستطيع السياسي

أن يثبت نفسه في المناقشات بأدلة جيدة وموضوعية . وأيضاً المهم أن يعتبر خبيراً وشريكاً بالمفاوضات من قبل خبراء الطرف الحزبي الآخر . وعندها يترقى في جناح حزبه البرلماني وبإمكانه حتى أن يحصل على مركز وزاري عندما يشكل حزبه الحكومة .

أما في ما يخص المجالات التفصيلية السياسية المعقدة والمهمة بامتياز والتي تحتاج إلى سنين طويلة من التدريب ، مثل السياسة الاجتماعية أو الصحية ، تستطيع الأحزاب في الاتحادات الوطنية استدعاء خبراء مختصين في السياسة العملية . أسماء هؤلاء تدوّن على لائحة بترتيب منتظم ومكانهم فيها مؤكد ، فقط لأنهم ذوو خبرة مميزة في مجال سياسي واستراتيجي مهم ولأنهم أيضاً مميزون في الجدل والحوار مع النقابات والإدارات . خارج اختصاصهم غالباً ما يبقى هؤلاء مجهولين طيلة حياتهم ولا يظهرون إطلاقاً في مجال السياسة الرمزية .

بما أن كل تفاصيل كل المجالات غير واضحة لإنسان ، لذا يتوجب على الأعضاء الآخرين في الحزب ، الجناح البرلماني ، الاعتماد على خبراتهم وخبيراتهم . وهذا هو السبب الرئيسي لسلوك الجناح البرلماني . فهؤلاء الخبراء يقدمون النصائح في المسائل ، عدا عن تلك التي تتعلق بالسياسة الرمزية ، كيف يصوت الجناح البرلماني ، ويتكلمون أيضاً باسم الجناح في المجلس ويذكرون أسباب خيار التصويت لدى الحزب .

وهذا يشرح سبب عدم حدوث مناقشة حقيقية في معظم جلسات البرلمان الألماني وسبب حضور عدد قليل من النواب لهذه الجلسات في الحالات العادية ، وعدد كبير من الحضور يقرأ الجرائد والملفات أو يتحدثوا مع الزملاء ، ويستمعوا ويصفقوا فقط عندما يكون المتكلم منتمياً إلى جناحهم . غالباً يحضر الجلسة فقط مندوبون من قبل الوزارة ، نادراً الوزير أو الوزيرة ،

الذين يقدمان مشروع القانون . ومن النواب القليلين الحاضرين يقفز دائماً بعضهم خلال المناقشة ويغادرون القاعة مسرعين ولا يعودون إلا عند التصويت .

يرى الكثيرون في هذا المنظر عاراً على الديمقراطية . فهم يرتأون أن أعضاء المجلس النيابي والوزاري ملزمون عادة بحضور جلسة التشريع والإصغاء بانتباه والمشاركة بالمناقشة . ولكن ذلك لا يكون إلا في المسائل الكبرى المتعلقة بالسياسة الرمزية .

أما في ما يختص بالمسائل المتعلقة بالسياسة العملية ، فهذه يتفق عليها الخبراء في الأجنحة البرلمانية بين بعضهم البعض وذلك في لقاءات لا تخصى بين الخبراء وجلسات لجانية ومناسبات عامة . هناك ومنذ سنوات يلتقي دائماً خبراء الأحزاب والإدارة والنقابات المعنية والعلوم والعمل . يتبادلون دائماً نفس الأدلة والبراهين ، ويعرفون مسبقاً من ومتى وماذا سيقول . مع ذلك تتقارب وجهات النظر مرة بعد أخرى ويكتشفون ظروفًا معقدة جديدة ويبحثون عن حلول جديدة ، ويتلاحمون ، يختبرون احتمالات وفي النهاية يجدون ترتيبات وتسويات ليس بمستطاع أهم ممثلي المصالح مكافحتها إلا باحتجاج متحفظ . ثم تتم التجربة ضمن الجناح ما إذا كانت الترتيبات تحقق المبتغى . يتم الكلام مع زملاء وزميلات في لجان لها صلة بالموضوع وتجري مساومات مع مضاربين محتملين في نفس الحزب : إذا تركتني أتصرف بهذا ، فلا أعيق طريقك في شؤونك . السياسي المتمكن في السياسة العملية يعرض مسألته على قيادة الجناح وعلى الجناح البرلماني بعد تعبيد الطريق ومعالجة كل ما يحتاجه للنقاش . ومن هنا يتبع الجناح البرلماني عادة اقتراح ودلائل الخبر أو الخبيرة من اللجنة المختصة بالموضوع . بعد ذلك تصبح المناقشة والتصويت في قاعة الجلسة شكلية : هم أنفسهم الذين سبق والتقوا

مراراً وتكراراً يعاودون قول ما سبق وقالوه سابقاً . فيقاطعون بنفس الهتافات التي سبق واعتادوا عليها . وأعضاء مجلس النواب الآخرون يصفقون أحياناً خلال تلاوة زميل لهم كلمته . ولكن ما من عضو آخر يستمع حقيقة ، لأن الموضوع خارج اختصاصهم وهم ليس لديهم أية فكرة أو أي اهتمام . حتى ولو كان الأمر غير ذلك ، فهذا لن يغير شيئاً لأن النتيجة مقررة مسبقاً . ولذلك لا حرج في أن يقيم النائب محادثات أخرى ملحة أو أن ينجز أعمالاً خلال المناقشة البرلمانية . لأن النواب لديهم مجموعة هائلة من الواجبات إلى جانب الجلسات البرلمانية . وعندما يدق الجرس في ممرات وغرف مبنى البرلمان للتصويت يهرعون عائدين إلى قاعة الجلسات ليتم التصويت حسب ما تم الاتفاق عليه ضمن الجناح البرلماني . في البرلمانات الإقليمية ومجالس برلمان البلديات تجري الأمور أيضاً على هذا النهج مع فروقات بسيطة . هناك يجري أيضاً العمل على عروض لا تحصى من قبل الخبراء والخبيرات وعلى تجهيزها للتصويت وتمريها عن خبرة مجربة عبر إجراءات التصويت . إنها السياسة العملية النشطة .

فقط عند الأزمات وعندما تكون الحكومة في مأزق وعلى حافة الانهيار ، هنا تمتلئ قاعة المجلس ، يحضر الجميع وكلهم يصغون بكل حواسهم . وعندما يتم في الواقع اتخاذ القرارات في البرلمان ، لأن كل شيء ممكن في التصويت السري . وهذه هي ميزة الديمقراطية . فقد صممت كالفراجل في السيارة ذات النوعية الفاخرة . فهذه وضعت حيث أن السائق يحتاج إلى دوسها بشكل هادئ وخفيف ليحصل على مفعول الكبح المطلوب . فقط في الأزمات وعند الفرملة الاضطرارية يضغط عليها السائق بالكامل ويستخدم كل طاقتها . كذلك هي الحال بالنسبة للبرلمان ، ففي دوراته العادية يعمل بأوفر الوسائل وبحضور ضئيل واندفاع قليل لإنجاز الأعمال الروتينية للسياسة العملية . إلا

أنه مجهز أيضاً للأزمة الكبيرة ، للتصويت ضد المستشار ولانتخاب بديل عنه ، لسألة الثقة بالحكومة ، وللحفل الرسمي الكبير . في الأيام العادية تكون المناقشات مهمة وواضحة فقط للمضطلعين .

كيف يمكن للناخبين والناخبات مراقبة السياسة العملية والحكم عليها وهم منشغلون بأعمالهم وبعائلاتهم وبالترفيه عن أنفسهم؟ ألا يتوجب عليهم الاستسلام أمام هذه الواجبات الهائلة وترك السياسة للخبيرات والخبراء؟

### كيفية البت في إجراء الانتخابات

نقرأ في الدستور بأن تحديد أهداف السياسة هو واجب الناخبين والناخبات وليس الخبراء . فالناخبون هم الذين ينتخبون أعضاء المجلس النيابي وهؤلاء بدورهم يقرون القوانين التي يُعمل بها في الحكومة والإدارات . هذا ما يفرضه الدستور .

أما إذا تأملنا بالناخبين في ألمانيا فنجد خيبة أمل . في معلومات الاستفتاء مثلاً من قبل ألبوس (استطلاع دوري في كل الأراضي الألمانية في العلوم الاجتماعية) يظهر دائماً ومجدداً الميول نفسه : الأكثرية الساحقة من الناخبين والناخبات ليسوا مهتمين وليس لديهم القدرة على فهم صلة السياسة بالمجتمع . فقط ٢٠٪ من كل الناخبين يرون أن السياسة مهمة جداً . في أقاليم ألمانيا الجديدة نجد أن الاهتمام أقل ويبلغ هنا ١٥٪ . أقل من نصف عدد الناخبين (حوالي ٤٠٪ غرب البلاد و ٣٥٪ في الأقاليم الجديدة) يتابعون بانتظام الجزء السياسي في الجريدة اليومية . صحيح أن ٨٠٪ في الغرب و ٧٥٪ في الأقاليم الجديدة يشاهدون نشرات الأخبار في التلفاز ، إلا أن الاهتمام يتراجع إلى حوالي ٣٠٪ في موضوع قراءة المجلات السياسية . أقل من ٥٪ من مجمل الناخبين (في الأقاليم الجديدة فقط ٣,٥٪) مستعدون

للمشاركة في نشاطات سياسية سواء ضمن حزب أو مبادرة هيئة سكانية .  
نظرياً يجب أن يختار الناخبون الأحزاب وفق برامجهم . لكن ما من  
ناخب سبق ورأى برنامج حزب ما . وبناء على ذلك فإن البت في  
الانتخابات نادراً ما له علاقة ببرنامج ومبادئ الحزب . ففي انتخابات عام  
١٩٩٨ رافق علماء ٥٠٠ مواطن ومواطنة قبل عام منها واستفتوا تبعاً كيف  
سينتخبون وما الذي أثر على اتخاذهم هذا القرار في التصويت . كل شيء  
يدل على أن قرار التصويت جرى وفق محيط انفعالي وليس وفق وجهات نظر  
منطقية . فهذا القرار يُبت بين الأصدقاء ، على طاولة اللقاءات الدائمة ،  
ضمن العائلة أو في مكان العمل . فقط القليلون من ال ٥٠٠ متعاون أدلوا بأن  
لوائح الإعلانات الانتخابية ، الخطابات والدعايات المتلفزة كان لها تأثير على  
قرارهم الانتخابي .

إضافة إلى ذلك فإن جزءاً من عامة الشعب الذي يصعب تقدير عدده  
ليست لديهم القدرة على الإدراك السياسي المنطقي ولا حتى على التحليل ،  
وفق مؤهلاتهم الذهنية والجسدية . فصحيح أن المادة ١٣ من قانون الانتخاب  
الاتحادي يستثني الأشخاص الذين خسروا حقهم الانتخابي بسبب حكم  
ما ، أو الذين تم نقلهم إلى مستشفى للعلاج النفسي وفق مرسوم قضائي  
بسبب عدم القدرة على تحمل المسؤولية ، أو الذين طُلب وأوكل لهم من يعتني  
بهم في كل حاجاتهم وشؤونهم بسبب عدم قدرتهم على إتمام ذلك ، فالذين  
يعانون من عائق ذهني ونفسي ويتواجدون تحت هذا السقف المذكور يتمتعون  
بحق الانتخاب . ذلك أنه وفق المفهوم الديمقراطي للقانون يحق من حيث  
المبدأ لكل بالغ الانتخاب ، إلا إذا كان هذا الحق قد تم إلغاؤه أو وضع قيود له  
بناء على قانون شامل أو مرسوم قضائي . إذن فحق الانتخاب يتمتع به أيضاً  
كل من ليس بمقدوره ممارسته حسب قراراته المنطقية السياسية وخاصة كل

الشريحة المتزايدة العدد من السكان الذين يبدأ عندهم الخرف . لأنه هنا أيضاً يصح التعبير الديمقراطي حول الحرية ، التي ليست كذلك ، إذ لا يجب القيام بغباء في نظر الآخرين .

إذا تأملنا أن النسبة المثوية الضئيلة من الأصوات الانتخابية تكفي غالباً لتؤدي إلى تغيير الحكومة أو لمنع تغييرها ، فهنا يتضح بأن الانتخابات ونتائجها لها فقط صلة هامشية بمنطق ونتائج السياسة العملية . وهذا يعطي المسألة المطروحة سابقاً أيضاً إضافياً ، ما إذا كان ينبغي في بادئ الأمر ترك السياسة مباشرة للخبراء والخبيرات حسب هذه الوقائع؟ يقدم لنا زمن الدولة الإمبراطورية الألمانية صورة مناسبة لذلك .

### الباخرة التي تجسد صورة الدولة

عندما أرغم القيصر ويلهيلم الثاني بسمارك على الاستقالة ، ظهرت صورة هذا الأخير في كاريكاتور حصل على شهرة كبيرة ، يظهره وهو ينزل على سلم أسدل من باخرة إلى زورق في المياه ، وعلى سور الباخرة صورة الربان مع أسارير وجه القيصر الذي يتبعه بنظراته راضياً عن نفسه . تحت الصورة كُتبت عبارة : «مرشد الباخرة يغادر متنها» .

صورة الباخرة والربان هذه ، وهو يديرها ، لا تحوي الكثير من الديمقراطية . فالربان لا يأخذ رأي أحد بما يختص وجهته . فهو الأمر والنهي بالمطلق . وأيضاً مرشد الباخرة ليس تعبيراً للديمقراطية . فحتى المرشد يعطي أوامره للربان . ولكن عادة يكون الربان ذكياً لدرجة أنه يستمع إلى نصائح المرشد ، لأن هذا الأخير خبير في ما يتعلق بطريق بحرية خاصة . فهو الحامل المطلق للخبرة غير المنحازة . وهو يعرف تماماً مجرى انسياب المياه ومن الغباء عدم الاستماع له . على ما يبدو استوعب بسمارك الوضع كالتالي : كخبير

موضوعي يتصرف لأجل وطنه مستخدماً الوسائل المتوفرة بعيداً عن كل الخلافات الحزبية . فصورة الباخرة ، كدلالة على المجتمع الذي يجب أن تتم قيادته ، تنبه إلى دكتاتورية الخبير الحسنة . فهكذا دكتاتورية كانت عادة حتى زمن الثورة الأمريكية والفرنسية ، لأن الملوك والأمراء والباباوات تركوا الحكم عادة للخبراء .

مع ذلك يتكلم اليوم السياسيون بعد كل دورة انتخابية عن إرادة الناخب بهدف شكره بلطف ، بأنه اتخذ قراراته لصالح أو ضد تحالف معين ، لصالح أو ضد اتجاه سياسي معين . فإذا صح ذلك ، وإذا انتظرت السياسة بالفعل وفق نظرية الدستور من الناخبين أن يحددوا الأهداف السياسية ، فهذا يؤدي إلى أن صورة الربان أو المرشد ، الذي يدير دفعة الباخرة وسط الرياح والتيارات واللجج نحو الهدف ، لم تعد صحيحة . هنا تنطبق صورة الهولندي الطائر ، بطل أوبرا لريتشارد فاغنر ، بشكل أفضل . بعد ارتكاب مخالفة ما قبل عدة مئات من السنين تقود الرياح والتيار الباخرة الضائعة دون هدف أو نهاية . كذلك ينبغي على السياسة أن تترك قيادتها لمزاجات السكان المتغيرة . فحيناً يتم إدخال حكم الإعدام ثم يتم إلغاؤه مجدداً ، وينبغي على السيادة أن تخضع لطاولات زبائن المقاهي الدائمين : دون هدف ودون اتجاه سيتجه ويدور هذا المجتمع من أصحاب البواخر عبر محيط تاريخ العالم . يا للكارثة .

### مأزق الديمقراطية

السياسة إذن أمام مأزق : من جهة عليها أن تهتم بمسائل متشابكة صغيرة وصعبة للغاية والتي لا تهتم إلا الخبراء والخبيرات ولا تتضح إلا لهم ، ومن جهة أخرى يجب أن لا تفسد وتصبح دكتاتورية الخبراء ، بل كحكومة ديمقراطية يدقق الناخب في أعمالها ويحددها . لكن الناخبين ، كما تبين ،



مكلفون فوق ما بوسعهم .فهم لا يستطيعون ذلك ، والأهم ، هم لا يريدون ذلك .

إذا اقتصرَت السياسة على مستوى معلومات غالبية الناخبين ، فهذا يؤدي بالمجتمع إلى أن يشابه الباخرة التائهة . أما إذا التزمت وواجهت الصعاب الواقعية وتعقيداتها فهذا يؤدي إلى استقلاليتها بنفسها وإلى إبعادها عن الناخبين وبذلك ينتهي دورها كسياسة ديمقراطية .

إنه مأزق السياسة في الديمقراطية . سواء ماذا تقرر فقرارها خاطئ . إذا قررت العمل الدؤوب فتعتبر غير ديمقراطية ، وإذا اختارت الديمقراطية ، تعتبر غير دؤوبة . كيف تنقذ نفسها من هذه الورطة؟

### توزيع العمل بين السياسة العملية والسياسة الرمزية

الحل بسيط ومنطقي : لعرضه على الناخبين يتم اختيار الجزء السياسي المسلي والمهم للعامة ، لكن أيضاً المهم لتكوين انطباع جيد للأحزاب والسياسيين . هذا الجزء يتم إخراجه والاحتفاء به في الأوساط الإعلامية أمام الجمهور الميال إليه . هذا ما يسمى السياسة الرمزية . ففيها يعرض نفسه كل حزب وكل عضو من النخبة السياسية بأمثل ما أمكن . هناك دائماً معارك انتخابية . كلٌّ يعرض نفسه ، يبتعد ويتراجع عن المنافسة ، يشتم الأحزاب الأخرى ويجعل منها أضحوكة . يبرز مزاياه ويمثل دور المتعهد للمصلحة العامة والتقدم والرفقير . السياسيون الذين درسوا مهنتهم يشتمون من على مسافة بعيدة ما إذا كانت إحدى الأسئلة المطروحة تتلاءم والسياسة الرمزية . هذه الأسئلة يجذبونها ، يدلون بتصاريح ويقومون بمؤتمرات صحفية وندوات واجتماعات حيث يلقون شخصياً بخطاباتهم ، يبدؤون بحملة كبيرة من الأسئلة في البرلمان أو يقدمون مقابلات كاملة لأحد الزملاء في التلفاز .

تؤدي السياسة الرمزية إلى كثير من الضوضاء . فهي تملأ صفحات الصحف وشاشات التلفاز . هنا يتم التثبث ما إذا كان السياسي مؤهلاً للفوز بالانتخابات . وهذا لا يتعلق أبداً بسياسته العملية الجيدة . ما يقرر هنا هو مظهره الخارجي ، طريقته في الحفاظ على دوره ، إطلالته الرجولية ، التزامه في الظهور وعدم التزامه في الموضوعية .

وهذا يسري كذلك لدى السياسيات . ولكن ، وحسب العقل الإنساني السليم كما يقال ، يُنتظر منهن تحقيق الكثير من التوقعات المتناقضة والصعبة التحقيق . فعلى النساء أن يكن أفضل من الرجال لكن لا ينبغي عليهن إظهار ذلك . عليهن أن يكن أنثيات ولسن مثيرات . مثل الرجال عليهن أن يكن في السياسة دائماً جاهزات وحاضرات وفي نفس الوقت أمهات وزوجات جيدات . وهنا نلاحظ أن السياسة الرمزية تتطلب من النساء ما يصعب تحمله . للتحقق من ذلك علينا فقط أن نجمع على ما يعتبر التعليقات الهزلية حول أنجيلا ميركل في البرامج «الكوميديا» في المحطات التلفزيونية الألمانية الخاصة .

الصحافة والتلفاز مهمان جداً للسياسة الرمزية لأنهما الوسيلة الوحيدة التي من خلالها نستطيع التقرب من كل الناخبين والناخبات تقريباً . والأكثر أهمية هنا هو إظهار الشخص لا أن تكتب الصحافة عنه أو إبداء تعليق على صورة له في شاشة التلفاز . هلموت كول ، كما نعلم ، واجه من أغلب وسائل الإعلام خلال مدة حكمه كمستشار خلال ١٦ عاماً الكثير من التعامل غير اللطيف ، كي لا نقول الإهانات . وبالرغم من ذلك فقد فاز بالانتخابات الواحدة تلو الأخرى . طبعاً بإمكان وسائل الإعلام تحطيم شخص ما من خلال ملاحظته بسبب طمعهم بأخبار شيقة ما يتسبب بطرده من مركزه . وبما أن وسائل الإعلام هذه تعيش من نسبة عدد المشاهدين والقراء ، لأن تسعيرة

الدعايات توضع وفق أهمية الخبر ، فهم يمكنهم استثنائياً نشر أو عرض فقط ما لا يتعارض مع مزاج العامة . ولأن مرامها الرئيسي هو بيع الإعلانات ، يتملقون غالباً على الجمهور وكأنهم يسعون إلى تربيته والتأثير عليه . وبذلك فإن تأثير الصحافة والتلفاز على تصرف الناخب هو أقل بكثير مما يعتقد البعض . وبالرغم من ذلك فإن العلاقات الجيدة مع الإعلام مفيدة للسياسة الرمزية . فانتقاء الصور ، ومركز الكاميرا للتصوير يمكن أن يعكس انطباعاً لطيفاً أو العكس . ولهذا السبب ينتقي السياسيون والسياسيات مقدمي المقابلات معهم بعناية ويحيطون أنفسهم بالصحافيين الذين يحصلون منهم بامتياز على معلومات مسبقة تتعلق بالمواضيع والذين بذلك يكلفونهم في الحين نفسه بالقدر القليل من الولااء . في النهاية يحسم الإعلام الانتخابات ولكن بأكثرية ضئيلة .

من أجل الفوز ، وهذا يعني الحصول على أكثر من 40٪ من الأصوات ، ينبغي البحث على موافقة كل الأطراف ، كل المجموعات ذات التوجهات المتضاربة جداً في المجتمع . وهذا ينطبق خاصة على مرشحي ومرشحات الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني . لأنه لديه ناخبه الأساسيين من بين العمال والعاملات الملتزمين تقليدياً كما من بين طلائع المكافحين الفنانين ، والمكافحات لأجل القحور ، والمدرسات الواعيات ، البروفسورات ، الطلاب ، أطباء وطبيبات ، مهندسون معماريون وموظفون إداريون . وإذا حصل أحدهم على مدح من إحدى الأطراف ، فمن المؤكد أنه سيحصل من الطرف الآخر على الرفض والانتقاد . فالتصورات من حيث المضمون والجمال لا يمكن أن تكون بعيدة عن بعضها البعض . ولذلك يصعب على الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني الفوز بالانتخابات .

أيضاً مرشح ومرشحة التجمع المسيحي الديمقراطي يجب أن يلاقي

إعجاباً لدى العدد الكبير والمتنوع من أطياف الناس إذا كان أو كانت يريد أو تريد الحصول على الأكثرية الساحقة : الفلاحون والمحامون ، العمال ورجال الأعمال ، أصحاب المطاعم والقساوسة ، المهندسون المعماريون والصيادلة ، طبعاً كلهم وطيون محافظون على القيم ومعارضون للاشتراكية لكن مع تناقضات كبيرة في الاهتمامات وتنوع الأقطاب . فكل قرار واضح في اتجاه ما يتسبب بخطر إهمال وانزعاج المجموعات الأخرى . فالمطلوب هو الإرضاء والدبلوماسية والمرونة . على الجميع الحصول على الرضى في أمورهم وما من أحد يشعر بأنه مستثنى .

السياسة الرمزية هي عمل صعب . فهي تحتاج إلى قوة الإقناع والتعمق ، إلى الجدية القصوى والالتزام وعدم قول شيء محدد يضايق إحدى المجموعات . هي تتطلب قمة النشاط ، التناسب ، التركيز القوي ، ولا تسمح بأية أخطاء . فلا ينبغي الاعتقاد بعدم المراقبة ، ولا يجب إظهار الغضب من الكاميرات والصحافيين المتربصين ومن أسئلتهم السخيفة غالباً ، كظم الغيظ . فوسائل الإعلام بالمرصاد ، كذلك الخصوم .

ولكن يجب عدم التساهل لئلا يصبح في ذهن الناخبين في طي النسيان . فمؤسسة التسويق هي المساعد الأكبر . فهي تتمتع بالخبرة الكافية لربط المشاعر الإيجابية والحنين والأمال بكل الإنتاجات الممكنة ، حيث أن الحنين إلى الحب الكبير المحقق يتصل بهيكل السيارة . مع قليل من المهوبة يكون الأمر كذلك مع السياسيين .

قد يكون هذا لاذعاً ، ولكن هذه الطريقة تنجح وبموجبها يتم الفوز والخسارة في الانتخابات . وبهذه الوسيلة يتحقق التغيير في السلطة دون عنف وديمقراطية . صحيح أن التغيير في السلطة لا يحصل حسب وجهات نظر عقلانية أو حسب ما ينص عليه الدستور للتغيير السياسي ، إلا أن هذا

التغيير يحصل دون سفك الدماء ويعمل جيداً .

في خضم التناقضات المتداولة حول حياة كولومبوس وحول حقيقتها الصعبة المنال والمبهمة يعتبر هذا الأمر غير عائب ولا تشوبه شائبة . ما يحسم الأمر هو أن أكثرية الشعب الناخب وأياً كانت الأسباب ، سواء غبية أم محدودة التفكير أو حكيمة أم سابقة النظر ، صوتت ضد الحزب أو التآلف الحاكم وأعطت الأكثرية لأحزاب أخرى ملائمة . إن النهج الشكلي المتبع بشكل صحيح هو الذي يحقق الشرعية وليس فحواه أو ما يتردد على الألسن حينها .

للسياسة الرمزية دور آخر مهم في المجتمع كونها غير ملزمة وغير واضحة . فهي تدمج المجموعات المتطرفة يساراً ويميناً مع الوسط . في تاريخ جمهورية ألمانيا الإتحادية كان دائماً عدد الناس من ذوي الميول اليميني المتطرف أكثر بكثير من ناخبي وناخبات الأحزاب اليمينية المتطرفة . الرمز الحسي المعادي للاشتراكية عند الأحزاب الديمقراطية المسيحية ، وخاصة الميزة الحربية الرمزية كتلك لدى فرانس يوسف شتراوس ، كان يؤدي دائماً إلى جذب ذوي الميول اليمينية المتطرفة نحو حلف التجمع المسيحي الديمقراطي / التجمع المسيحي الاجتماعي . فقط عندما شكل هذا الحلف تحالفاً كبيراً مع الحزب الديمقراطي الاجتماعي في نهاية الستينات وبدأ شتراوس يغازل الحزب الديمقراطي الاشتراكي في البرلمان ، عندها واجه الحزب الوطني الديمقراطي تهديداً بأن يصبح حزباً يمينياً في كل أنحاء الإتحاد الألماني . هذا الشيء بالطبع ينطبق تماماً على دمج المتطرفين اليساريين من قبل الحزب الديمقراطي الاشتراكي . وهناك كان ولا يزال دور السياسة الرمزية لدى الأحزاب الكبرى مهماً ومطمئناً ولا يجب المبالغة بتقديره أكثر مما يستحق .

## أهمية السياسة العملية

وراء واجهة مظاهر السياسة الرمزية هذه التي تحجب كل شيء وتسيطر على كل شيء وراءها يكمن عمل السياسة العملية القاسي ، المكلف وقتاً طويلاً والمليء بالتحدي . ولا تلاحظ العامة شيئاً من هذا القبيل . فهنا تتم المساومة في جلسات لا تنتهي ومحاورات لا تحصى بين الخبراء حول حلول المسائل التي يتوضح أنها بحاجة ماسة إلى تعديل . وهذا عمل موضوعي من الدرجة الأولى .

تتم مناقشة الكثير من القوانين في المانيا بين موظفي المحافظات الاتحادية من جهة وأولئك في الاتحاد الفدرالي من جهة أخرى ضمن اللجان في المجلس الاستشاري الاتحادي . وهنا تضبط الإدارة أدواتها ، والسياسة الحزبية لا تلعب أي دور . وغالباً ما تدور مسألة التصويت عبر كل الأحزاب . وهم يبحثون حلولاً كافية لمسائل يومية ومجريات إدارية .

غالباً تعرض النقابات المهنية والهيئات الإدارية مسائلها لدى الوزراء في الإدارة ، والوزراء بدورهم يصيغون عنها أحكاماً إدارية أو نماذج قانونية جديدة يقدمونها لوزيرهم الذي بدوره يتحقق منها وما إذا كانت تحتوي في طياتها بذرة أساسية للسياسة الرمزية ، ما يعني إذا كانت تقيد في انتخاب حزبه مجدداً أو إذا كانت تسيء له .

إذا كانت ذات فائدة يأخذ زمام المبادرة ويقوم بموجبها بالسياسة الرمزية . وهنا تعتبر مهمة الخبراء انتهت ويتم الحسم وفق المعايير السياسية . إذ يؤخذ بعين الاعتبار ما يعجب الناخبين الذين في كل الأحوال هم من طرفه ، أو أولئك الذين يستطيع ضمهم إلى ناخبيه . أما وجهات النظر الموضوعية فتتضاءل أهميتها .

أما إذا اتضح أنه ما من دلائل لشؤون رمزية ، فتترك المبادرة للخبراء . وهنا

يستطيع أولئك فيما بينهم وبهدوء إنجاز وتنفيذ الحلول التي تبدولهم الأفضل . أما الهيئات السياسية فتجاريهم تلقائياً . الأجنحة البرلمانية تلوح وتشير بالأمر والشؤون . المجلس النيابي والمجلس الاستشاري الاتحادي يصبحان أدوات للتصويت ، حيث لا يعرف أحد من المصوتين ماذا يبت ويقرر .

إنها الفرصة الكبيرة للويين ، وللمندوبين الذين يمثلون مصالح المؤسسات والمزارعين وأصحاب الحرف ومعامل البيرة ومصانع السيارات والنقابات العمالية ومؤسسات التأمين وكل ما هنالك من مصالح واهتمامات منظمة . فهؤلاء يحاولون بسط نفوذهم ومصحتهم على إجراءات تشريع القوانين . إذا كان هناك توافق بين المندوبين المعنيين فيكون بإمكان هؤلاء في مجال السياسة العملية وبكل هدوء حياكة تشريع القوانين بشكل كامل وصحيح .

دون التكلم عن السياسة أو الأحزاب يتم البحث عن الحلول ، وتناسبها مع بيروقراطية التجمع الأوروبي ثم صياغتها إلى نصوص قانونية لا يستطيع فهمها في دقتها إلا فقهاء القانون الإداريين الذين بدورهم يضيفون عليها تعليقاتهم حول المواضيع المعينة . أثناء كل هذا تجري الكثير من التحركات والتشكيلات دون أن تحدث أية ضوضاء سياسية ودون أن يظفر أحد بالغار ودون أن يصل ذلك إلى وسائل الإعلام .

تنتقي السياسة الرمزية من السياسة العملية أفضل ما يلائمها . فهي تحكّم وتحسم مسألة السلطة . إذ أن السياسة العملية تقدم كل ما يحتاجه المجتمع ليعمل جيداً . كما في قصة مارك توين عن ورقة النقد المليونية ، حيث جنى الساذج الأمريكي من المدينة الصغيرة ثروة طائلة عملية من خلال التأمين الرمزي لثروته الورقية . كذلك تؤمن السياسة الرمزية بإطلاقتها المهيبة للسياسة العملية مجالاً كافياً لمعالجة المسائل المهمة والمعقدة والروتينيات

الإدارية المتعلقة بالمجتمع العامل والفعال بهدوء وموضوعية ومن خلال الخبراء والمعنيين .

هكذا تعمل السياسة وليس كما ينص عليه الدستور وليس كما تتمناه الفلسفة السياسية ، لكنها تعمل للتخلص من المأزق الواقع ما بين الحق في الديمقراطية من جهة والنقص في المعرفة والاهتمام لدى الجزء الأكبر من الناخبين من جهة أخرى . والحل ممتاز : تؤمن السياسة الرمزية الحفاظ على السلطة أو تغييرها دون أن تنهك الناخب . في الوقت نفسه تؤمن للسياسة العملية زمناً ومكاناً كافيين ليتسنى للخبراء والمعنيين طرح وصياغة حلول موضوعية لمسائل معقدة جداً ، إضافة إلى الإجراءات الإدارية .





## الفصل السادس

### الأمير الصغير والملك - أو ماذا تفعل الحكومة الجيدة؟

كان أنطوان سان إيكزوبيري في النصف الأول من القرن العشرين رائداً ناشطاً في الطيران المحركي . فقد قام برحلات فوق الصحاري والجبال ، في الليل والنهار ، في العواصف والضباب . نجا في الكثير من الهبوط الاضطراري والحوادث التي كان جزء منها في الصحراء . إلى جانب ذلك كان أيضاً كاتباً عظيماً . فقد حقق شهرة كبيرة من خلال القصة التالية : مرة أخرى أجبره عطل في المحرك أن يهبط وسط إحدى الصحاري . بقيت الطائرة سالمة إلا أنه كان هناك وحيداً ، دون ميكانيكي ولم يكن لديه من ماء الشرب سوى كمية تكفي لفترة ثلاثة أيام على الأكثر . كان عليه إنجاز التصليحات بنفسه . لقد كانت قصة حياة أو موت .

في صباح اليوم التالي بعد الهبوط الاضطراري سمع صوتاً منخفضاً غريباً يقول : « أرجوك . . . ارسم لي خروفاً! » . التفت مندهشاً ورأى فتى بحجم صغير جداً . بعد الحوار معه تبين أن الفتى هو أمير من كوكب بعيد صغير جداً ألا وهو الكويكب B612 . بينما كان الملاح يعمل على تصليح طائرته تعرف على الأمير وعلى عالمه أكثر فأكثر وأصبحا صديقين . وهكذا حصل على معلومات حول الكويكبات التي نزل عليها الأمير الصغير في طريقه إلى الأرض . على إحدى هذه الكويكبات التقى الأمير الصغير بملك ، لم يكن غيره موجوداً على هذا الكوكب . كان الملك مترعباً على عرشه البسيط جداً

ولكن ملوكياً بردائه الفرو الأرجواني . وما أن رأى الأمير الصغير نادى : « آه ، أنظر ، أحد الرعايا » . وهنا تساءل الأمير الصغير في نفسه : « كيف له أن يعرفني ولم يسبق له أن رأني من قبل؟ » إذ أنه لم يكن يعلم بأن أبسط الأمور في العالم عند الملوك هو : كل الناس هم رعايا .

أراد الملك إظهار نفوذه على ضيفه بإعطائه شتى أنواع الأوامر التي لم يستطع الأمير إطاعتها أو لم يرد تنفيذها . وبعد أن أصبحت كل الأوامر وكل النواهي دون جدوى أوضح الملك للأمير الصغير سرّ فنون حكمه :

« إذا أمرت أحد الجنرالات بالطيران من زهرة إلى أخرى كالفراشة ، أو بكتابة مأساة ، أو بتحويل نفسه إلى طائر بحري ، ولم ينفذ الأوامر المعطاة له ، فمن باعتقادك يكون الظالم والمذنب؟ »

« عندها تكون أنت كذلك » ، أجابه الأمير الصغير عن يقين .

أجابه الملك : « بالضبط ، فعلى كل واحد أن يطلب ما يستطيع الآخر تنفيذه . فأساس السيادة بالدرجة الأولى هو العقل والرشد . إذا أمرت شعبك بالسير واللقاء نفسه في البحر فسوف يتمرد عليك . أنا أملك الحق بأن أطلب الطاعة لأن أوامري عاقلة وصائبة » .

قبل أن نحلل قصة الأمير الصغير والملك أريد أن أروي تتمة القصة : لم تنجح عملية التصليح ومع كل يوم تقل فيه كمية الماء كان سان إيكزوبوري ينتقل بقصته شيئاً فشيئاً بالأمير الصغير إلى العالم الحزين/الجميل ، إلى أن أراد هذا الأخير العودة إلى كوكبه والاختفاء في العدم . كأنه الموت ، إنما سان إيكزوبوري تم إنقاذه لأنه استطاع لاحقاً العودة إلى ذلك المكان في الصحراء حيث اختفى الأمير الصغير ، وكتب عن ذلك : إنه بنظري المشهد الطبيعي الأكثر جمالاً والأكثر حزناً في العالم .

## فن الحكم

تخدمنا قصة سان إيكزوبري عن الملك والأمير الصغير أن نستعرض فن الحكم عن كذب . والأمر هنا لا يدور حول التفاصيل ، مثل تشكيل الوزارة ، أو التحالفات والمنافسات عند توزيع المناصب ، أو الصراعات عند صياغة برنامج الحكومة أو الدرب الطويل لتشريع القوانين . الأمر ليس أيضاً مضمون المسائل أثناء الحكم ، مثلاً كيفية تحضير برنامج الضرائب الذي يحدد نهج السياسة الخارجية ، أو أية احتمالات أو خدع تكمن في السياسة الأوروبية والاجتماعية والصحية . فكل ذلك تتم قراءته في الصحف اليومية . فقصة الملك والأمير الصغير تساعدنا لنجد جواباً على السؤال : ما هي الطريقة المثلى للحكومة لتحظى بالطاعة من رعاياها؟

الإجابة الأولى والسريعة هي طبعاً : تحتاج الحكومة إلى نفوذ . لأن النفوذ هو الذي يجعل الملك ملكاً والآخرين جميعاً رعايا . مؤسس عرفّ النفوذ بشكل لا يزال حتى اليوم لا جدال فيه إلى حد بعيد . «النفوذ هو الفرصة لتحقيق المبتغى ضمن المفهوم الاجتماعي ، وفرض الإرادة على الامتعاض وعدم الرضا ، كيفما كان قوامه» .

هذه هي فكرة الملك في القصة مع الأمير الصغير ، معتمداً على إشارات السلطة ومسلطاً عليه الأوامر .

إلا أنه فشل بذلك فشلاً ذريعاً ، لأن الأمير الصغير أردف قائلاً ، بعد أن منعه الملك من أن يتشاءب ، بأنه لا يستطيع قمع ذلك . وعندما أمره الملك بعدها أن يتشاءب ، خاف الأمير الصغير لدرجة أنه لم يعد باستطاعته ذلك . لم يكن بمقدور الملك تنفيذ إرادته ضد امتعاض الأمير الصغير . حتى أوامره له بأن يجلس لم تتحقق لأنه لم يكن على الكوكب أي مكان لذلك . وبذلك لم يكن الملك يملك أية سلطة على الأمير الصغير .

فلو كان لدى الملك الفرصة بأن يهدد حياة الأمير الصغير أو أن يمنع عنه شيئاً مهماً أو أن يضمه له ، فكان بإمكانه بالتأكيد إجباره على أن يتشاءب ، أو على الأقل جره إلى أن يأخذ القرفصاء إذا لم يستطع الجلوس . عندها كان الملك سيحصل على السلطة على الأمير الصغير . إلا أن هذا الأخير لم يكن يبغى شيئاً من الملك الذي بدوره لم يكن يملك شيئاً يستطيع بواسطته تهديده أو إغراءه .

إن الملك في قصة سان إيكزوبيري ذكي لدرجة أنه لاحظ فشله في نزاعه على الحكم . إذ أنه غير سياسته في هذا المأزق واختار نهجاً مختلفاً بالكامل للحكم . فقال بأن لديه الحق بأن يطالب بالطاعة عندما تكون أوامره عاقلة ، وهي كذلك . فهو لم يصرّ على تحقيق إرادته أياً كانت . فهذا هو الآن يطالب بالطاعة على أوامر عاقلة . ماكس فيبر سمى طريقة الحكم هذه ، والتي تعتمد على الموافقة ، السيادة المشروعة : «الفرصة لنجد الطاعة عند أشخاص مأمورين لأمر ذي مضمون معين» .

في الحديث اليومي ليس هناك فارق بين السلطة والسيادة . فالكلمتان يتم ربطهما بنفس المضمون ، ألا وهو القدرة على تحقيق المرام . إلا أن قصة الملك والأمير الصغير توضح جلياً بأن تحقيق المرام له طريقتان مختلفتان واضحتان : الطريقة الوحشية التي لا يتوجب عليها مراعاة ما إذا كان الرعايا موافقون ، والطريقة اللينة التي تراهن على الموافقة وبذلك لا تحتاج أوامرها إلى أن تفرض نفسها . وهنا نأخذ بالتمييز الذي وضعه ماكس فيبر لنوضح الفرق بين الطريقتين : على «السلطة» أن تعني سياسة الحكم التي تحقق مرامها أيضاً تجاه العوائل ، بينما «السيادة» سياسة الحكم التي تراهن على الإدراك والموافقة .

في الحديث اليومي لا يتم التمييز بين الطريقتين لأنه في الواقع أمر

صعب على الأغلب . وهكذا تبدأ الحالة السيادية مع تجارب ميلغرام . يتبع الخاضعون للتجربة الإرشادات لأنهم تقدموا بأنفسهم لذلك طوعاً لقاء المال وينطلقون من أن الموظفين في البحوث العلمية في الجامعة الشهيرة يعطون إرشادات عاقلة .

لاحقاً ، عندما يرى الخاضعون للتجربة العذاب الذي يتسببون به يبدأون بالامتناع . شيئاً فشيئاً تتحول السيادة إلى سلطة . يسحبون موافقتهم من التجربة . وبالرغم من ذلك يتابعونها لأنهم يتلقون الأمر لذلك بشكل مباشر ولا يجروؤن ، ويا للعجب ، على مخالفة هذا الأمر . هكذا أصبح الحال الكلاسيكي للسلطة : المؤسسة الأمرة تحقق إرادتها في الجانب الاجتماعي مقابل عدم الرضا .

أيضاً في الواقع السياسي غالباً ما يتداخل هذان النمطان الحكوميان في بعضهما البعض . وهنا مثال عن الترتيب العكسي : في السنوات الأولى من حكومة شرودر أقرت الحكومة الائتلافية إجراءات لا يرحب بها الجزء الأكبر من المواطنين : الضريبة البيئية . هذه أدت إلى ارتفاع أسعار كل ما يعمل بالطاقة التي تضر بالبيئة ، على سبيل المثال السيارات والكميونات ، كان ذلك يرمي إلى ترغيب أصحاب المصانع بالتحول إلى مصادر للطاقة أقل ضرراً على البيئة . وفي الوقت نفسه تصب الإيرادات الإضافية التي تتحقق من جراء ذلك في صندوق الضمان الصحي وصندوق التعويضات ، وبذلك تنخفض في المؤسسات التكاليف الجانبية للأجور ومن خلال ذلك تستطيع هذه المؤسسات مواجهة المنافسة العالمية بشكل أفضل .

كانت الحكومة الجديدة وقتئذ تحت عبء إثبات قدرة حكمها ويحتمل أنها مررت مشروع القانون بسرعة فائقة دون مراعاة الاعتراضات عليه . اضطرت محطات الوقود إلى إضافة الضريبة البيئية على الضرائب الأخرى

المرتفعة على كل حال . فيما يخص مادة الديزل كلن يعني ذلك قفزة جنونية للأسعار . كان الأمر كارثة على كل المتنقلين بسياراتهم التي تسير على الديزل لأنهم اقتنوها لوفرة مصروفها .

كل وكالات الشحن والنقل بأساطيلها البرية اضطرت إلى مراجعة حساباتها وتقديراتها بالكامل . إذ أن قطارات الشحن الأجنبية تستطيع أن ترميها خارج السوق بأسعار الديزل الرخيصة من بلادها . وحصلت احتجاجات عارمة . قطع سائقو الشاحنات الطرق السريعة ، حيث أنهم قادوا مركباتهم جنباً إلى جنب وعلى كل الخطوط عرضاً وبسرعة ضئيلة جداً . كلهم تدفقوا إلى برلين حيث مقر الحكومة وشلوا حركة السير في المدينة . تدخلت الشرطة ووقعت العقوبات . يعتبر هذا الحدث الحالة الكلاسيكية للسلطة . فالحكومة حققت إرادتها بالوسائل الجبرية مقابل عدم الرضا .

في هذا الجو المضطرب وجدت المعارضة مناسبة لتسجيل نقطة فوز في السياسة الرمزية . فقد وقفت إلى جانب سائقي الشاحنات ، صحيح أنها استنكرت بليوننة تصرفهم غير القانوني ، إلا أنها أسمته «غير مستغرب» في ظل ما سمته بنظرها الظلم المخزي واللاعقلانية في سياسة الحكومة . أيضاً وسائل الإعلام بمعظمها أزرت سائقي الشاحنات ، يكفي أنها قدمت الصور الأفضل . تأرجح الصدامُ وبقي لأسابيع طوال الموضوع الرئيسي . وكان قصد المعارضة ووسائل الإعلام إجبار الحكومة بالتراجع في هذه المسألة . لقد كان الأمر نزاعاً على النفوذ . وكان هدف الطرفين إخضاع الطرف الآخر لمآربه .

راهنّت الحكومة على عنصر الوقت ، المصانع التي وقعت في الخسارة بسبب الضريبة البيئية أعلنت إفلاسها وأغلقت . ومعها اختفى أيضاً المحتجون المكافحون ، بينما درست المصانع الناجية أوضاعها مع المصاريف الجديدة ووجدت طرقاً ، ألا وهي إلقاء جزء منها على عاتق الزبائن والجزء الآخر

تعويضها من خلال تحديد التكاليف في مجالات أخرى . في الواقع غير بعض المستهلكين أوضاعهم واشتروا سيارات ذات استهلاك أوفر للمحروقات ، أو انتقلوا إلى القرب من مراكز أعمالهم أو أوجدوا توازناً بين رغباتهم بالتنقل واستهلاكهم . شيئاً فشيئاً وببطء ملحوظ خسرت إجراءات الحكومة طابعها المخزي واحتلت الصدارة مواضيع أخرى . ومع مرور الزمن تم قبول الضريبة البيئية ، عن يقين والبعض الآخر جراء العادة .

على كل الأحوال كان ذلك قانوناً وفي ألمانيا اعتاد الناس على التقيد بالقوانين . السلطة تحولت إلى سيادة . والآن لم يعد للشرطة داع للتدخل . الناس تتبع القانون الآن من تلقاء نفسها ، فقط لأنه القانون .

### الانتقال من التسلط إلى السيادة كإجراء تاريخي

إن الضريبة البيئية هي مثال نموذجي . على معظم قوانين الحكومة أن تقوم بحل المسائل الاجتماعية . والحل نادراً ما يكون مفيداً لكل المعنيين ، كون غالبية المشاكل الاجتماعية تصدر عن حالة الضيق . ولكي تضبط الحكومة المستأثنين تقوم باستخدام أجهزة إدارتها وبطشها . خروقات القانون يتم الإجابة عليها بإنذارات جزائية ، تبليغات بالرسوم ، وشكاوى . كل اعتراض على ذلك يصل إلى المحاكم . وكل من لا يلتزم بأحكام المحاكم تصبح علاقته مع الشرطة ، وقد يؤدي به الأمر حتى إلى هيئة المحكمة التنفيذية القضائية . كل هذا يسمى سياسة القوة بالمطلق . مع الوقت تصبح الظروف على ما يرام . يتم إيجاد أساليب لضبط النزاعات . والناس تتجاوب مع السياسة الجديدة وتتكيف بتصرفاتها وبطريقة تفكيرها مع الطرف القانوني المتبدل . فهم يتلقفون الوضع الجديد في أيامهم العادية كما يتلقف الحار حبة الرمل ، ومع الوقت يعطونها تفسيراً إيجابياً . وهكذا تصبح التدابير جزءاً



بديهياً طبيعياً لعالم مشروع وعلى ما يبدو عاقل . لا أحد ، أو بالكاد أحدهم ، يشك فيه . فهو يتحول من تدابير سلطوية إلى عنصر سيادي . والآن بإمكان الحكومة أن تطالب رعاياها بالطاعة ، مثلما فعل الملك من الأمير الصغير ، لأن أوامرها أصبحت عاقلة .

إن الإجراء التاريخي للسياسة : النسيج المعقد للأحكام والقوانين الذي يحدد حياتنا والذي نتقبله دون سؤال ، يتكون في البدء من قرارات سياسية ، تكون تكراراً لموضوع نقاش ، والتي تُفرض بادئاً بوسائل القوة ثم تتحول شيئاً فشيئاً إلى سيادة .

### النفوذ والعجز

كان الملك على الكويكب عاجزاً أمام الأمير الصغير . فقد استطاع إصدار الأوامر له كيفما شاء ولم يخضع الأمير الصغير لها . إنه وضع رهيب للملك أو لحكومة . من هذا المنطلق يأتي السؤال الملح : كيف يعمل النفوذ وكيف يتكون العجز؟ يبدو أن الجواب بسيط : النفوذ يملكه من يتمتع بأدوات السلطة ، مثلاً السلاح ، الجيوش والمال . عاجز هو كل من لا يتمتع بشيء على الإطلاق ، سوى بعرض رث وبرداءٍ ضخم أرجواني من الفرو . أما إذا تأملنا جيداً تصبح المعادلة البسيطة : الوسائل = النفوذ ، تدعو للتساؤل .

مثال على ذلك : تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية دون شك ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم بمعظم الوسائل لبسط النفوذ . فهي تعتبر الدولة الأقوى في العالم . ومع ذلك فقد انتصرت الدولة الصغيرة فينتام الشمالية ، النامية والفقيرة ، في الحرب أولاً ضد فرنسا ثم ضد الدولة العظمى ، الولايات المتحدة الأمريكية .

كيف يمكن ذلك؟

إن تفسير قلب الأوضاع هذا من ناحية القوة ليس إلا الأهمية المختلفة لهذا النزاع بالنسبة للبلدين . فبالنسبة لفيتنام الشمالية وللفيتكونغ كانت تلك الحرب تعتبر الأمر الأهم في العالم . فقد كانوا مستعدين تقريباً لتأجيل تحقيق كل رغباتهم الأخرى من أجل متابعة القتال ضد الولايات المتحدة . بينما كانت حرب فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة ليست ذات أهمية تذكر . إذ أن فيتنام كانت إحدى المناطق الكثيرة التي تدور فيها النزاعات والصراعات . فلم يكن هناك استعداد للاستغناء عن تحقيق رغبات مهمة . فالولايات المتحدة كانت مضطرة بزيادة لإنفاق واستخدام أساليب أكثر لتحقيق أهدافها ضد فيتنام الشمالية والفييتكونغ . ازداد عدد السكان الذين تم جرهم إلى الحرب . وسرعان ما تجاوز استخدام الوسائل ، وبشكل بارز ، العبء الذي كان السكان الأمريكيون مستعدين لتحمله بسبب تلك الحرب . فقد سحبوا ، أكثر فأكثر ، من الحكومة موافقتها على المتابعة . ازدادت تكاليف التغلب على المقاومة الداخلية وإلجبار الناس على الطاعة . وسرعان ما تجاوزت التكاليف الداخلية وبشكل قوي الخسائر التي قد تنشأ عن الاستسلام في فيتنام . واعتُبرت الحرب خاسرة .

هكذا هي الحال في النفوذ . غالباً ما يعتقد البعض أن النفوذ هو وسائل القوة . لكن وسائل القوة هذه لوحدها لا تمنح النفوذ . ما يحسم الأمر هنا هو أهمية المسألة التي يدور حولها مفهوم النفوذ . فالنفوذ ليس غرضاً بحد ذاته أو لا . النفوذ هو نتيجة مفهوم اجتماعي . على هذا الأساس تم تعريفه من قبل ماكس فيبر : بأنه «الفرصة لتحقيق المبتغى ضمن المفهوم الاجتماعي ، وفرض الإرادة على الامتعاظ وعدم الرضا ، كيفما كان قوامه» . الإرادة تتحقق من خلال استخدام أساليب القوة ، لكن كم وأية أساليب تلزم لذلك ، هذا يتوقف على مقدار أهمية الموضوع المتداول بالنسبة للجهة المواجهة .

فبالمستطاع تحقيق الإرادة فقط إذا تسنى إيجاد شيء لدى الجهة المواجهة أكثر أهمية . وإذا كان بالمقدور تعطيل هذا الشيء أو إتمامه ، فعندها ستأخذ الجهة المواجهة بعين الاعتبار تغيير تصرفها في هذا الأمر وترك الهدف الثانوي لصالح الهدف الأكثر أهمية .

بحسب أهمية مواضيع تشريع القوانين بالنسبة للناس ، تملك الحكومة أوجهاً عديدة لبطء نفوذها عليهم . لذلك تتمتع الحكومة دائماً بجهاز سلطة كثير التدرج ، من الإنذار ، مروراً بالجزاء مع وقف التنفيذ ، ومع تنفيذ العقوبة ، إلى السجن الاحتياطي . يجب أن يكون بالإمكان مضاعفة التهديد . ولكن من لا يملك الحاجات الضرورية لذلك ، والذي أولاً وأخيراً يريد ارتكاب عملية انتحار ، فهذا لن يكون بالمستطاع التأثير عليه لا بالتهديد ولا بالوعيد . فمن تعني له حياته أقل من الهدف السياسي ، الإرهابي مثلاً ، فهذا لن تكون لأية سلطة في العالم القدرة على فرض نفوذها عليه .

لذلك لم يكن للملك أية سلطة على الأمير الصغير . فالثاني لا يريد شيئاً منه ، وليس بمقدور الملك أن يقوم بما يجبر الأمير لأن يذعن لإرادته . ولكن لو أن الأمير الصغير تعاطف مع الملك ، فكان بإمكان الأخير بسط نفوذه عليه دون أن تكثر وسائل نفوذه . فكان بإمكانه أن يجعله يتشاءب ، بأن لا يتشاءب ، أن يتصرف وكأهه يريد الجلوس ، ببساطة عبر أن يتصرف وكأنه حزين . إنها الاحتياجات الشخصية التي تجعل من أحدهم عاجزاً .

يعمل النفوذ دائماً وفق الصورة ذاتها . التهديد أو الرشوة : أعطيك إذا . . . ! أو أخذ منك ، إذا لم . . . !

من أجل تحقيق ذلك هناك حاجة إلى الوسائل . الرشوة تكلف المال . والتهديد يكلف السلاح ومستخدمين يطبقون التهديد ويفرضونه عند الضرورة . انطلاقاً من هنا يعتبر النفوذ وفق المعطيات الضرورية بلا ريب

تناسبها مع كمية الوسائل المتاحة وتحت التصرف . وهذا يؤكد طبعاً أن النفوذ مرتبط بالتكاليف .

### ايجابيات السيادة

على عكس ما سبق وورد فالسيادة لا تتسبب بأية تكاليف تذكر . من له الحق بأن يطالب بالطاعة ، لأن أوامره تعتبر عاقلة فهو ليس بحاجة لتهديد أو رشوة أحد . أكثر ما تكلف السيادة هو الوقت ، ألا وهو الوقت اللازم لإقناع الناس بأن الأوامر المعطاة عاقلة .

عند مثال الضرائب البيئية كان ينبغي على الحكومة مناقشتها مع كل المعنيين والمساومة على الحلول إلى أن يوافق الجميع ولو على مفض . وبذلك لم يكن من داع لاستخدام القوة .

هذه السياسة ، سياسة الإقناع والمساومة إلى أن يتم إيجاد الإجماع والموافقة تم مدحه في السبعينات «بالنموذج الألماني» . أما اليوم فهي مكروهة . ففي إحدى خطابه حكيم رئيس الجمهورية الاتحادية هرتسوغ على سياسة الإقناع والمساومة بأنها تراكم من الإصلاحات والركود حين عبر ومن باب النكتة بأنه «ينبغي أن تحصل هزة دافعة في ألمانيا» .

مع ذلك تفعل الحكومة عين الصواب حين تطمح بالحكم اعتيادياً من خلال السيادة وليس القوة . عليها تخطي المقاومة ليس بالتهديد ، وليس عليها استخدام الوسائل ، وهي أيضاً ليست خاضعة لتغييرات ظروف رغبات مواطنيها . لأجل ذلك يجب أن يكون هدف كل سياسة عاقلة تحويل النفوذ إلى سيادة .



## الفصل السابع

### هاكليري فين - أو الطريق إلى الحيرة والارتباك

هاكليري فين هو فتى صغير وقع من جنوب الولايات المتحدة الأميركية . في الحقيقة انه في حالة تدعو للشفقة ، لأن والدته توفيت باكراً ووالده المدمن على الكحول لا يهتم به . تعنى عمتاه بعطف شديد بجعله «حضارياً» . إلا أنه يتنصل من اهتمامهن . بالنسبة له ، حريته وتقرير مصيره بنفسه هما أهم من كل ما تقدمه الحضارة . وبذلك حرر نفسه من عجزه تجاه العالم «المتحضر» ، هذا العالم الذي ليس له سلطة عليه ، أو بالكاد سلطة ضئيلة ، لأنه لا يعني له شيئاً .

هكذا نشأ في حرية متواضعة ، إلى أن خطفه والده ليعلمه أسلوبه هو عن «الحضارة» : الحرية التامة للحياة في كوخ في الغابة . هناك يتعلم «هاك» كيف يعنى بأمور نفسه وكيف يقلل من تعلقه بخيرات الحضارة . إلا أن والده متقلب المزاج ومتجبر بإفراطه في السكر وفي نمط حياته الفوضوي .

نتيجة ذلك يتتبع هاك قصة وفاته ويهرب إلى جزيرة منعزلة في الميسيسيبي . هناك يلتقي جيم ، عبد فار من سنة تقريبا والذي تعرف عليه في المدينة معرفة سطحية . يحاول الاثنان سوية البقاء على قيد الحياة ويتصادقان . يلاحظ هاك أنه وجد في العبد الفار شريكاً أكثر مصداقية وأمانة من جميع الناس البيض من قبل . لذلك يقرر الاثنان الذهاب إلى أوهايو حيث لا وجود للرق والعبودية وبذلك يصبح جيم حراً .

بينما هما هارين صادفا لصوصاً ، مخادعين ، مثلين ، قتلة ، ودائماً وأبداً وفي كل مكان يكونون عنصرين ، هؤلاء يعملون جهدهم على إجبار العبد الفار جيم على الرجوع إلى الرق . تم أسرهما دائماً ومجدداً ، لا أن بديهة هاك ووقاحته تنقذهما من المأزق . مع كل ذلك تنتهي رحلتها حيث بدءا . جيم في السلاسل وهاك يخضع مجدداً لبرنامج تربوي . إلا أنه يتضح بأن جيم كان قد أصبح طليقاً قبل فراره وأن كل ما أقدم عليه كان سدى .

هاكليري فين هو فتى صغير عاجز وعلى ما يبدو واقع تحت رحمة سيطرة العالم ومهزوم أمامها بالنهاية . حتى أنه لم يحقق نصر الحرية ، بل بالصدفة الحمقاء . وبذلك تعتبر قصة هاكليري فين أفضل مثال عن كيفية التخلص من حالة الحيرة والعجز .

### أهمية هاكليري فين التاريخية

كتب مارك توين «مغامرات هاكليري فين» تحت عنوان «رفاق توم سوير» عام ١٨٨٤ وأصبح من خلال هذه القصة غنيا وشهيراً . يعتبر الكتاب في أميركا مساهمة في الثقافة العالمية ، بينما في ألمانيا فيعتبر كتاباً للأطفال .

إلا أن قصته هي فن مبالغ وانجاز نادر حقاً . لأول مرة تجرأ توين في كتاب كامل وليس فقط في حوارات منفردة على طرح كل أنظمة ضبط الكتابة والقواعد جانباً ، كما وتجراً على الكتابة وكأن القصة يرويها فتى من الولايات الجنوبية . اختار مارك توين لذلك اسلوباً ساذجاً باللغة العامية ، وبالتكرار الكثير وبمفردات الولايات الجنوبية العنصرية من زمن ما قبل الحرب الأهلية . وهذا الأسلوب يظهر عكس العنصرية تماماً ، ألا وهو قصة التحرر من هذه المعتقدات العداثية والخائفة تجاه الإنسان . وهكذا أصبح هاك بطل الحرية .

في وصف رحلته «السادجون خارج البلاد» قوى مارك توين ثقة أبناء

وطنه بأنفسهم مقابل أوروبا المتعاضمة والمنحطة . وها هو الآن صنع بطلا أميركيا حقيقيا يبشر بالبشرى السارة : بالإمكان تحقيق الحرية الشخصية ، والإنسانية والحضارة الحقيقية دون وضد الثقافة الأوروبية . تحاول عمتاه جعله «حضاريا» قدوة بأوروبا ، إلا أنه يفر ويلاقي تهديبا أكثر من كل الأشخاص الذين يلتقيهم خلال فترة فراره .

هذا التهذيب يتجلى في شجاعته الأدبية . أية سيادة لا تعني له شيئا ، كذلك أية أوامر وأية قدوة . فهو يتفقد كل شيء وفق معايير شعوره للإنسانية . صحيح أنه يستخدم لغة العنصرية ، لغة عالمه ، لكنه يفكر كإنسان لا يهتم لون البشرة ولا المنشأ ، بل فقط الإدراك النزيه عند الناس .

### هاكليبيري فين والسياسة

كما ان الملك الإبليس ساعدنا في البداية ، فان هاكليبيري فين بطل قصة مارك توين يساعدنا في الحصول على لمحة بسيطة أخيرة عن السياسة في نهاية هذا الكتاب .

هاكليبيري فين هو ذلك الساذج والعاجز ، الذي يجول في العالم الفوضوي قبل الحرب الأهلية الأميركية الفظيعة . فهو في حال تشبه تماماً حال والدي قبل الحرب العالمية الثانية . إلا أنه ينجح في بناء عالمه بنفسه ولو بشكل جزئي على الأقل ، وأيضا في الحفاظ على إنسانيته تجاه العالم . كيف ينجز ذلك؟ بماذا يفيدنا الجواب في المجال السياسي؟

كان هاكليبيري فين قد هرب من كل الروابط المعتدلة المستعارة ، فهو يستطيع تدبير أموره بنفسه ، وهو على علم بكل خدع الطبيعة وخدع العالم الذي يعرفه ، وليس بحاجة إلى أن يكون خاضعاً لشيء أو لأحد . صداقته مع العبد الفار جيم بالنسبة إليه أهم من كل شيء آخر . ولذلك يسهل عليه



إظهار شجاعته الأدبية . إذاً ما من إمكانية لاستخدام أية حاجة أخرى لديه لجره إلى خيانة علاقة الصداقة عنده . ما من أحد يتمتع بالسلطة عليه لأن الحرية والإنسانية المشتركة هي أهم الأشياء بالنسبة له .

هنا يكمن الفرق بينه وبين والديّ . فبالنسبة لهما - وللملايين من الألمان - كان منزلهما المجهز حديثاً وراحة عائلتهما أهم بكثير ، رغم كل الأحوال حول الاضطهاد والظلم تجاه اليهود وحول اضطهادهم بتاريخ ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ فقد بقيا وشاركا حسب الضرورة ، مثل الكثيرين .

لقد أظهرت تجارب ملغرام بأن الطاعة تتعلق بالشروط البناءة . إذ أن احتمالات الشجاعة الأدبية تزداد إذا تعارضت السیادات ، أو إذا تخالفت . إلا أن هاكليبري فين يظهر شرطاً آخرًا ومهماً للشجاعة الأدبية : ألا وهو إذا استطاع أحدهم بسط نفوذه على شخص ما ، وإلى أي مدى يستطيع ذلك ، فهذا يتعلق بما هو مهم عند هذا الشخص . وهذا هو أساس الشجاعة الأدبية : الإنسانية المتبادلة ، الحرية ، تقرير المصير والاحترام ، كلها يجب أن تكون افتراضات مهمة ، كي لا تعمّ وسائل النفوذ الاعتيادية والتهديد والرشوة .

بوجه استثنائي فقط ينحصر أمر هاكليبري فين بسلطة الدولة . وجودها في تلك الأثناء في أميركا كان نادراً جداً . لذلك كان مضطراً لإثبات شجاعته الأدبية مع أشخاص آخرين . وهنا أيضاً يثبت أنه معلم بارع وشيق . لأنه لا يدخل في مواجهة مباشرة على الإطلاق ، كذلك هي الحال بالنسبة للإقدام على النزاع لأنه على كل الأحوال كان سيخسره كونه فتى صغير وعليه حماية عبد فار . فهو يحقق مرامه بواسطة غنى أفكاره وروح النكتة التي يملكها . فهو يحول نقطة ضعفه إلى قوة عندما تكون إجابته كردة فعل على التهديد بضرورة شق صديقه الزنجي دون محاكمة : «ومن يدفع للمالك ثمن العبد؟» وأيضاً عندما يحمي صديقه من صيادي عبید آخرين بوضعه

السلاسل له وادعائه بأنه قبض عليه بنفسه و سيرجعه إلى مالكة الشرعي ليقبض المكافأة المالية .

غالباً ما تكون الشجاعة التي تعني إثبات ذاتها في النزاع خطيرة جداً ، خاصة في مواجهات مع أشخاص مستعدين لاستخدام العنف . لأن هذا هو تحديداً ما يريدونه : خضمّ المعركة ، ونشوة الأدرينالين التي تحطم كل عقلانية ، وكذلك مراعاة واعتبار الآخر . هاكليري فين يتصلّ من استخدام العنف بواسطة تعابير تحوّل ضعفه إلى قوة من خلال روح النكته والخلفية الحسية .

تدل رواية مارك توين بأسلوب بسيط جداً وماهر على أن الشجاعة الأدبية تظهر وتنجح حتى في ظروف غير ملائمة على الإطلاق . من هذا المنطلق تعتبر قصة هاكليري فين قصة سياسية بامتياز ، لأنها تظهر كيفية التوصل من وضعية العجز إلى وضعية تقرير المصير .

### الرباطات الشعبية : المشاركة مع الآخرين في الشجاعة الأدبية

تحظى عظة هاكليري فين على معنى آخر وفق الشروط المحلية والحالية . فالأمر لم يعد الأذغال والنهر وصيادي العبيد . على الأغلب تعني اليوم الشجاعة الأدبية ، المسؤولية مع الآخرين عن ما يعتبره الفرد مهماً وصحيحاً . عادة يكون الهدف بأن يصبح الفرد هو الدافع لأهداف منفردة في نقاط منفردة ، وأن يخل بالروتين ، وأن يجعل المجتمع يغير ويمعن التفكير ، هذا المجتمع المنظم للغاية والذي تغلب عليه السياسة والمنظمات الكبرى .

الرباطات الشعبية مثل المنظمات غير الحكومية ، غرين بيس أو منظمة العفو الدولية هي أمثلة لهذا الشكل من الشجاعة الأدبية . إنها في الواقع أيضاً سياسية ، لكنها سياسة دون أحزاب .

هذا النشاط الاجتماعي المدني الملتزم ، تطور منذ سبعينات القرن العشرين ويقدم للذين حلت عليهم لعنة العجز أمام المنظمات الكبرى ، إمكانيات متنوعة للتغلب على هذا العجز . هؤلاء الناس يستطيعون بمساعدة تلك المجموعات المجابهة أمام السياسة الكبيرة في ما يختص بمسائلهم المهمة وإجبارها على مراعاة ظروفهم و التراجع . ما يعني كسب النفوذ على السياسة بالنقاط .

السلاح الرئيسي لهذه المجموعات هو السياسة الرمزية : فهم يجمعون التواقيع ، ينادون للقيام بنشاطات مبتكرة ورائعة ، يقيمون الحفلات وأسواق البيع ، أو يختلقون حدثاً فعالاً يلفت انتباه الصحف . فإذا نجحوا في إحراج الأحزاب بسياستها الرمزية بشكل أن تصل علنية تلك الأحزاب إلى مستوى أقل - أو حتى أسوأ - منه للرباطات الشعبية ، عندها تقع السياسة الرسمية تحت الضغط . وعندئذ غالباً ما تتراجع لأنها تخشى خسارة ماء وجهها . هنا تدخل المسألة موضوع الحل وبعدها تستطيع الرباطات الشعبية التفاوض مع الفاعلين في السياسة العملية بكل هدوء والبحث عن حلول مرضية . هذا الأمر يحصل أكثر مما نتصور . هذه النشاطات الدقيقة لموضوع محدود تؤدي إلى نتائج مذهلة في مجال السياسة .

تعتبر مثل هذه المبادرات ، المبدأ الأمثل للتجربة السياسية . فليس بالضرورة الدخول في تحديد النظرة العالمية للحزب . فالتحركات تتم حيال موضوع محدد ويجري في هذا النوع من السياسة الدقيقة التعرف إلى أشخاص مهمين ، كذلك إلى السرور والكآبة ، والى عقبات وذروات النجاح وإلى أن السياسة تجلب الاستمتاع ، حتى ولو أنها لا تنجز إلا القليل ، أو لا شيء . يكفي أن التداول المشترك مقابل ظاهرة أقوى يجلب الشجاعة وينقذ من حالة العجز .

## ايجابيات العمل الحزبي

إذا أردنا حقاً قهر العجز أمام السياسة العظيمة ، علينا التدخل بشؤونها . وبدون العضوية في الحزب يكون التدخل محدوداً فقط بنقاط منفردة ومنحصراً على إعطاء الصوت في الانتخابات . من ضمن ما يقارب الستين مليون ناخب في ألمانيا الاتحادية لا يتعدى وزن صوت الفرد الناخب الواحد على ستين مليوناً .

إلا أنه هنالك ١,٧ مليون عضو حزبي مقابل ستين مليون ناخب . وهذا يعني أن ٣ بالمائة فقط من الناخبين هم أعضاء حزبيون . ومن ضمنهم حوالي النصف فقط ، من ١ إلى ١,٥٪ ، من الناخبين ناشطون .

هنا يجري في الأحزاب العمل الرئيسي في السياسة : تحدد الأحزاب مرشحيتها ومرشحاتها لكل مراحل الانتخابات . يقدمون الموظفين لملء كل المراكز المهمة سياسياً تقريباً ، سواء في البرلمان والحكومة أو في الوزارات وحتى في المحاكم . هم يحددون التطور السياسي لجمهورية ألمانيا الاتحادية ويعتبرون الموجهين المسيطرين بالطلق للسياسة ويقبضون على السلطة بأيديهم . من يريد التأثير في السياسة و فعل شيء في هذا المجال حقاً ، عليه الانتساب إلى أحد الأحزاب .

تعتبر الفرص للنشاطات السياسية من خلال العضوية الحزبية ، خاصة في أيامنا هذه المميزة بالرشد السياسي وبالاستعداد المتضائل للمشاركة في الأحزاب ، أفضل مما كانت عليه بكثير ، وفي الولايات الجديدة بشكل مميز ، لأن كل عضو نشيط إلى حد ما وطلق اللسان يملك هناك الفرصة للوصول إلى مراكز ناجحة ومهمة .

لكن السياسة الحزبية ليست مثل سواها . فهي مثل اللعبة الإستراتيجية الديناميكية المشوقة بشكل غير اعتيادي . إذ أن القوانين ليست مؤكدة على

الإطلاق . وهناك تحالفات وخصومات جديدة ما يتطلب القدرة التامة على تقدير المراعاة ، من ينبغي تكليفه ، من تتم مجاملته ، لمن يتبع ومن يتم استهلاكه . فقط من خلال التحالفات والمناورات الماهرة يتم إيصال المرشح المفضل المرغوب به . فالحزب ملزم بكامل أعضائه بخوض المعارك من أجل الحصول على أعلى نسبة ممكنة من الأصوات . وإلا فجميع أصدقاء الحزب هم منافسون له في المراكز والنفوذ .

مع كل ذلك : تتضاعف القيمة السياسية لكل إنسان ينتمي إلى حزب سياسي . فعوضاً عن تقاسم السلطة مع ٦٠ مليون مواطن ناخب يتم عندئذ تقاسمها مع بضعة آلاف من أعضاء الحزب الناشطين . وهذه هي الخطوة الأهم للتغلب على العجز في السياسة .

### السياسة البلدية مدخل للسياسة الحزبية

تعتبر الشؤون البلدية المدخل الأفضل للأعمال الحزبية ، خاصة تلك التي تتعلق بالدوائر والبلديات الصغيرة . فالكل هناك يعرف الجميع ولكل فرد أهميته ولا تلعب الأحزاب أي دور كبير . غالباً ما نجد جمعيات انتخابية مستقلة ترشح العمدة أحيانا . مسائل هذه البلديات الصغيرة واضحة : أين ينبغي فتح تحويلة الشارع؟ أفلا يجب على طريق البلدة أن تصبح هادئة مع حركة السير؟ من أين تأتي نفقات تصليح الأضرار الناتجة عن الصقيع؟ إنها من أولويات مسائل المواطنين وحلها يجلب الرضى لهم . لكن الأمور تدور أيضا حول السلطة الواقعية . إذ أن إقرار مشروع بناء أو عدم إقراره ، أو تصنيف منطقة كأرض زراعية أو لا ، أو إعلان إحدى الطرق منطقة للمشاة فقط أو لا ، يتم مع قرارات مالية بمبالغ ضخمة وكذلك مع فرص كثيرة مناسبة . فما من فساد دون سبب خاصة على الصعيد البلدي . ولهذا تجري السياسة البلدية مع

الكثير من المسؤولية وتقدم الفرصة للمراقبة الفعالة للسلطة ولتجاوز العجز في مجال مهم بامتياز للحياة اليومية .

لكن هذه ليست هي السياسة التي تقرر ما بين الفقر والغنى أو ما بين الحرب والسلم . فالسياسة البلدية تتحرك فقط ضمن إطار ضيق تضعه القوانين الاتحادية والإقليمية وتدابير التجمع الأوروبي . فالموسيقى تُعزف على المستوى البلدي وعلى هذا المستوى يتم تنفيذ أغلب القوانين ودفع أكثر التكاليف . إلا أن التلحين يتم على مستوى آخر . القليل منها على المستوى الإقليمي ، لكن الأمور الأكثر أهمية على المستوى الاتحادي وأكثر فأكثر على المستوى الأوروبي في شتراسبورغ وبروكسل . صحيح أن معرفة هوية العازف أمر مهم . هناك فرق موسيقية جيدة وكذلك سيئة ، وأيضاً قادة أوركسترا ، أما كون المعزوفة جيدة أم لا فالأمر يتعلق بالملحن ، ومقام هذا الأخير موجود على مستوى أعلى .

تزداد أهمية الفرق الذي سبق ذكره بين السياسة العملية والسياسة الرمزية مع ارتفاع المستوى المذكور . هناك مراكز يتم إحرازها فقط من خلال الانتخابات العامة : المجلس البلدي ، العمدة ، مجلس إدارة المنطقة ، مديرية دائرة الإقليم ، المجلس النيابي الفدرالي والمراكز الوزارية المناسبة . من يصبو إلى انتخابه أو إعادة انتخابه عليه ممارسة السياسة الرمزية . فهي الأهم لهذا الغرض . وهذا الموقع يستلزم أيضاً المعرفة بأسس السياسة العملية والإمعان الكافي بها . في الواقع يقوم الخبراء أساساً بجلسات طويلة يجرون فيها مفاوضات حول تسويات في أمور تفصيلية ، لكن غالباً تصدر القرارات بوجود ووساطة المستوى الأعلى شخصياً . إلا أن السياسة العملية تُمارس أساساً فقط بالدرجة الثانية . فالقرار النهائي يعود للانطباع العام وليس للانجاز الفعلي .

## دور أعضاء الأحزاب في السياسة العملية

فيما يتعلق بالمناصب التي يشغلها أشخاص سياسيون حزبيون ، فالأمر ليس كذلك ، ولا يتم ذلك من خلال انتخابات . يبدأ الأمر بمناصب أمناء الدولة من المستوى الرفيع حتى المستوى الوسط للوزارات ، إدارات المدن والبلديات ، كذلك القضاء . ففي هذه المناصب تنشط السياسة العملية . عادة يصدر أعضاء الدوائر المرتبطون بسياساتهم الحزبية أحكاماً موضوعية تحت تأثير سياسي حزبي لا يذكر . كذلك هو الأمر في مشاريع القوانين والأوامر الإدارية والمحاضر لإنجاز وتذليل المشاكل اليومية الاجتماعية . غالباً يقومون بأعمال وثيقة بالتعاون مع الدوائر والجامعات والمدارس والمستشفيات والمصانع ويبحثون سوية عن الحلول الأفضل . ولا تلعب انتماءاتهم أو برامجهم الحزبية أي دور على الإطلاق . وتتم معالجة الأمور اليومية السياسية دون تحديدات والتزامات إيديولوجية . هنا يجري بناء الواقع . ولا يهم سوى القدرة والفكاهة والأمانة ، وليس العقيدة .

لا تعتبر السياسة العملية شيقة ورائعة مثل السياسة الرمزية أبداً . فهي لا تفوز بانتخابات ولا تكسب سلطة . إذ أن مسؤوليتها تنحصر بما تتركه لها السياسة الرمزية ، لكن بإمكانها كسب الرضى والارتياح ، وتتمتع بأهمية بالغة في تماسك المجتمع لأنها تؤمن لنا من خلال عملها الدؤوب أياماً مريحة ولو كانت هذه الأيام معقدة أحياناً ونادراً ما نتخبط بها . هذا الرضى اليومي عما أصبح بديهياً هو أساس السيادة ، التي تقنع بحكمتها اليومية لدرجة أن أغلب الناس يوافقون على هيكلية الدولة ويعترفون بسيادتها حتى ولو كانوا يشمئزون من الكثير من أعمال السياسة الرمزية ويضطرون في هذه المجالات مكرهين إلى الإذعان للسلطة .

## أعباء السياسة الرمزية ومغرياتها

تصوّب السياسة الرمزية سهامها إلى الإعلام لكنها نادراً ما تدركه . إذ أن احتمالات بث المجريات السياسية في الراديو والتلفاز محدودة جداً كما نعلم . وفي صحف العامة - ألا وهي الصحف المحلية والاشتراكات إضافة إلى الصحف الشعبية الأكثر من إقليمية - ترد السياسة على صفحات قليلة فقط لكن مع أقوال وصور ملفتة للنظر . إلا أن الناشطين في السياسة الرمزية ملزمون بالتحدث مع كل الصحفيين والاستفادة من كل فرصة للتعبير عن ذاتهم . لذلك يمضون الكثير من الوقت في المناسبات الاحتفالية يهرعون من موعد إلى آخر ، من منح الجوائز إلى حفلات التدشين ، من افتتاحيات إلى تولي المناصب ، من التوديعات إلى التكريات . كذلك يقرؤون نصوص خطابات أشخاص آخرين ويستمعون إلى خطابات غيرهم ، يشاركون في المقابلات ، ويديرون محادثات خلف الكواليس ، بالكاد يتبقى لديهم وقت كاف لمسائل السياسة العملية . فهذه المسائل يتركونها لزميلاتهم وزملائهم .

مع ذلك تتمتع السياسة الرمزية برويق رائع . فمن خلالها يتم لقاء الأشخاص المهمين وإثبات ما إذا كان أحدهم يُعد من هذا المحيط . في السياسة الرمزية تتخذ القرارات المهمة والكبيرة فعلاً ، وفيها أيضاً تدور أمور الفقر والغنى وكذلك الحرب والسلام . وبذلك من غير الممكن الالتفاف على السياسة الرمزية لتحقيق النفوذ الواقعي وللمشاركة الحقيقية في صياغة العالم .

إلا أن القليلين فقط يحتملون كل ذلك . فأيام الدوام والعمل طويلة وصاخبة ، والمواعيد ، الواحد تلو الآخر ، تتخللها الاجتماعات ، واتخاذ القرارات يتم تحت ضغط الوقت ، باكراً دراسة ملفات ، تقديم تواقيع ، إهمال للحياة الخاصة ، قلة النوم . مهنة السياسة عمل قاس وأغلب الناس يتفادون



بذل جهد كهذا . والكثيرون لا يحتملون عبء هذا العمل . فالخطر الرئيسي هو : أن ينسى المرء أنه مهم من خلال مركزه وليس من خلاله كشخص . فنحن نعتقد بسهولة أن الأنظار والازدحام والوقار هي تجاه الشخص المعني بالأمر . عندها لا يصبح باستطاعتنا العيش بدون مناصب لأننا نكون بحاجة إلى الأوهام التي نحصل عليها فقط من خلال المناصب .

إلا أن القليلين فقط من الناس يقعون في هذه المشكلة . فالأمر بالنسبة للغالبية هو نفسه لهاكليري فين . فهم يمشون أيامهم العادية دون مناصب مرموقة كما يمضي الأغلب من حولهم . فهم محاطون بتطوراتٍ تأثيرهم عليها ضئيل جداً ، وبأناس يتفاعلون معهم . كل هذا يعترض الناس في حياتهم اليومية ومع كل واحدة منها يظهر ما إذا كانت الحرية وتقرير المصير واحترام كرامة كل إنسان مهمة لدرجة أنهم يدافعون عنها حتى ولو كان عندهم أهداف أخرى مهمة . وبهذا تكون شروط وجود الشجاعة الأدبية موجودة والتي هي أهم ما يملك المجتمع الجيد .

## الخلاصة

### ثاني أفضل الحلول هو النظام الوحيد للتطبيق

الشخصيات المختلفة التي ظهرت في الأدب العالمي إلى جانب تجربة ملغرام الاجتماعية التي أضحت هي أيضاً من الأمور الكلاسيكية ، هذه كلها سلّطت الأضواء في الفصول السابقة على جوانب مختلفة للسياسة .

### الملاك إبليس

الملاك إبليس في نظر مارك توين أعطى نظرة متواضعة عن النظام الاجتماعي : صحيح أن ديكتاتورية الفيلسوف الذي هو على معرفة تامة ومطلقة في مجمل الأمور هي الشكل الأمثل للسياسة ، لكن هنا يتوجّب التغلّب على المشكلة التي تتمثل في إمكانية تحويل قراراته الصائبة إلى أعمال ملموسة. من خلال تجاوز الحواجز الكامنة في التركيبة غير المرنة في التكوين الحزبي ، هنا وفي هذه الحال قد تصبح الآليات الديمقراطية المعقّدة والقابلة للخطأ غير ضرورية ويمكن الاستغناء عنها ، لكن الصعوبة في التوافق والاتفاق على من هو ذلك الفيلسوف العالم بكل شيء ، بل ربما استحالة التوافق عليه تجعلنا مضطّرين إلى اللجوء إلى ما سبق وقاله أفلاطون وهو ثاني أفضل أشكال الحكم وهو الديمقراطية وأن نرضى بها .

وهذا ينطبق أيضاً على التكوين المجتمعي : أن المجتمع المثالي هو ذلك الذي يضحى فيه كل واحد بمصالحه الخاصة خدمة للمصالح العام . وهنا أيضاً

يصعب التوافق على تحديد ماهية الصالح العام مثل صعوبة التوافق على تمديد شخصية الفيلسوف العالم بكل شيء وبالتالي لا بدّ هنا أيضاً من العودة إلى الخيار الآخر وهي ثاني أفضل الحلول أي المجتمع الأناني .

في المجتمع الأناني يعرف كل فريق أين تكمن مصالحه الخاصة ويتصرف على هذا الأساس . عندما يصل كل فريق إلى مبتغاه وتتحسن أحواله يكون قد شارك وإن من غير قصد ومن خلال يد خفية غير مرئية في تحقيق الهدف المنشود وذلك بطريقة تصاعديّة يتحقق من خلالها العبور إلى الصالح العام . لكن المجتمع الأناني هو أيضاً له ثغرات وأخطاء تركيبية ، منها تلك الكامنة في تربية وإنشاء جيل جديد . إن تربية جيل جديد على الأنانية المطلقة أمر في غاية الصعوبة ويحتاج إلى جهد كبير ليكون بالنوعية المطلوبة وفي إطار شامل يفي بالغرض المنشود ، وهنا لا بدّ من وجود سياسة مناسبة تسير إلى جانب المجتمع الأناني . إنها سياسة لا تهدف فقط إلى تحقيق غايات اقتصادية صرفة ، بل أن يكون لها أهداف مركزية أخرى لتحقيق الأهداف الأكثر شمولية ، وهنا ينتقل السؤال المحوري من السؤال عن ماهية أفضل المجتمعات إلى ماهية أفضل السياسات .

لقد أظهر لنا الملاك إيليس من خلال مليارات التجارب الإنسانية التي حصلت بعد رحلة كولومبوس أن السياسة عاجزة عن إعطاء تحاليل يمكن الاعتماد عليها حول التطوّرات المستقبلية ، بل أنها قادرة فقط على التعامل والتفاعل بحريّة أوسع مع المستجدات والتطورات الحاصلة من خلال ما يتوفر لها من إمكانيات واسعة مرنة تجعل منها سياسة مقبولة إلى حدّ بعيد رغم بعض التحفظ تجاه عجزها عن تحقيق النقطة السابقة . إنها سياسة لا يمكن لها الجزم بأن قراراتها ستكون صائبة بصورة قطعية إلاّ إذا كان الحظ من حلفائها . لذلك كان عليها أن تسعى إلى اتخاذ قرارات يمكن تحقيقها حتى في ظروف

غير مواتية ، وأن تكون هذه القرارات قابلة لإعادة النظر فيها بصورة دائمة مع السعي الدائم إلى توسيع نطاق مجالات التحرك مع الاستعداد الدائم للقيام بخطوات تصحيحية للمسار العام .

## روبينسون كروزو

كان روبينسون كروزو بمثابة الرسول القادم من الحرية التي كانت سائدة في القرن السابع عشر وهي الحرية التي كانت حدودها تصل إلى حدود الإمكانات والوسائل التي تكمن في ذاتها . بعد روبينسون كروزو جاء عدد من الفلاسفة منهم كانط الذي وضع حدوداً أضيق للحرية تقف عند حدود حرية الآخرين . لكن في الواقع الاجتماعي نجد أن معظم الناس يجد نفسه في تركيبة اجتماعية متشابكة تجعله يتداخل إلى حد بعيد في حريات الآخرين متجاوزاً الحدود المشروعة لحياته هو وذلك في جميع الاتجاهات وبصورة تلقائية .

وهذا ما أدى بدوره إلى عودة روبينسون كروزو إلى الساحة مجدداً ، فنجد اليوم أن الإنسان يميل إلى العيش منفرداً ، دون ارتباطات والتزامات إلى أبعد حد ممكن ، منعزلاً عن الآخرين وكأنه يعيش على جزيرة خالية من البشر ، وإذا كان هناك من علاقة مع الآخرين فهي تقتصر على الأمور الوسائطية مثل الشؤون المالية . لكن هذا النموذج من البشر نسي أن هناك سبيل آخر متاح أمامه وهو العمل على توسيع آفاق الحرية . بما أن الحرية تتركز في كيانها على ما يتوفر من إمكانات ووسائل متاحة فإنه وبالتالي يمكن توسيع تلك الآفاق بصورة فعالة والى حد بعيد من خلال تضافر القوى والتعاون مع الآخرين من البشر بدل الانزواء والتقوقع خلف القدرات والإمكانات الذاتية المحدودة . هذا هو جوهر السياسة والمعنى الحقيقي لها .

## ميلغرام

لكي تستطيع السياسة والديموقراطية أن تعمل بصورة فعّالة ، لا بدّ للسياسة أن توضح للعلن وتكشف النقاب عن حقيقة النزاع الدائر حول جوهر الحقيقة ، الأمر الذي أثبتته تجارب ميلغرام واختباراته . الاختلاف في وجهات النظر السياسية يجب مناقشته في العلن بهدف الوصول إلى الحلول الصحيحة . إذا لم يحصل ذلك نجد أن الناس يميلون إلى تنفيذ توجيهات السلطة القائمة مهما كانت غير إنسانية وحمقاء ومكلفة . بسط السلطة يتطلب الطاعة العمياء في كل زمان ومكان إلا إذا كان إلى جانبها قوة أخرى متساوية معها قادرة على معارضتها ومقارعتها . هذه هي الميزة الكبرى للديموقراطية : إن هذا الجدل يضطر الناس إلى التفكير في ماهية الأمور وبالتالي اتخاذ الموقف الذي يروونه مناسباً ومتناسباً مع الحقيقة .

إن السياسة القائمة على الجدل والاختلاف في الرأي والمنافسة في الوصول إلى ما هو صواب تشكّل الركيزة الأساسية لانبثاق الشجاعة الأدبية عند الفرد ، أي القدرة والاستعداد لمواجهة الآخر دفاعاً عن القيم التي يؤمن بها .

## الأميركي الساذج في لندن

ذلك الأميركي الساذج الذي استطاع في لندن تحقيق ثروة طائلة من خلال امتلاكه لورقة مالية بقيمة مليون جنيه وهمية كانت بحوزته لفترة محدودة فقط ، أظهر الفرق بين السياسة الرمزية والسياسة العملية حيث استطاع من خلال شيء رمزي الحصول على ثروة حقيقية . وهكذا أيضاً تستطيع السياسة الرمزية أن تفوز في الانتخابات إذا فشل الفائز بالسياسة العملية في تحقيق الأهداف المطلوبة ، لا سيما وأن عدداً محدوداً من الناخبين

هو على استعداد ولديه القدرة على متابعة تفاصيل النجاحات والإخفاقات للسياسة العملية ومقارنة النتائج استناداً إلى منهجية تلك السياسة طالباً الإجابة على السؤال التالي : هل حقق الحزب أهدافه وهل استطاع الوفاء بوعوده؟ الناس في معظمهم يشاركون في الانتخابات استناداً إلى عواطفهم ضمن نطاق العائلة أو الأصدقاء . الأمر الحاسم في ذلك يكون عادة تلك الانطباعات التي تتركها السياسات الرمزية التي تخاطب الناس على أنهم كل متكامل خلافاً للسياسات العملية التي تتجه نحو التفاصيل والجزئيات الحياتية الخاصة بالفرد .

هكذا تتحول السياسة العملية وبسهولة إلى نوع من ديكتاتورية رجال الاختصاص التي تؤدي فعلاً إلى ممارسة سياسة فاعلة لكنها ترضي ولا تتناسب مع المتطلبات الديمقراطية . وإذا تم اللجوء إلى السبل الديمقراطية بحثاً عن حلول لمسائل جوهرية مثل اللجوء إلى الاستفتاءات الشعبية على سبيل المثال ، فإن النتيجة ستكون على حساب الفعالية في القرارات .

يمكن تجاوز هذا الإرباك بكل سهولة إذا استطاع المرء أن يكون أكثر تواضعاً وأقل اندفاعاً في تطلعاته في مشروعية الديمقراطية السياسية : السياسة العملية تحل المشكلات الجزئية ، السياسة الرمزية تعرض مشكلات المجتمع الكبرى وتتخذ قرارات قد تكون مناسبة أو غير مناسبة في بعض الأحيان ، لكنها وهذا هو الأمر الأهم أنها تتيح الفرصة أمام انتقال السلطة دون أحداث دموية . أما السياسة العملية فبإمكانها تحقيق تسويات بيروقراطية للمشكلات اليومية بطريقة مجدية ولكن في ظل السياسة الرمزية وتحت حمايتها . أما إذا استطاعت السياسة العملية الإمساك بزمام الأمور بصورة مطلقة فإنها ستكون عاجزة عن الحيلولة دون سفك الدماء عند انتقال السلطة . إنها عملية لا يمكن وصفها بالأمثل ولكنها فاعلة وهي تشكل النظام الوحيد القابل للتطبيق .

## الأمير الصغير

لقد أظهر «الأمير الصغير» لسانت إكسيوري أن باستطاعة نظام الحكم القائم على القوة أن يفرض إرادته بصورة أكثر سرعة وفعالية من النظام القائم على السيادة . إلا أن عنصر الضغط والإلزام الكامن في القوة والاستبداد تجعل من ذلك النظام وسيلة سياسية لا يمكن الاعتماد عليها إضافة إلى ما تتطلبه من أثمان غالية . أما نظام الحكم القائم بالدرجة الأولى على مفهوم السيادة فهو يحتاج إلى وقت أطول لجعل الآخرين يتقبلونه وبالتالي لتحقيق أهدافه وفرض إرادته . أما إذا حصل ذلك فيصبح الحكم عندها سهلاً وقليل الكلفة . معظم الحكومات تعتمد مزيداً من هذين النمطين ، إذ يجري اعتماد القوة في فرض حلول لمشكلات سياسية ، بعدها يتم اللجوء إلى تصحيح المسار لكسب تأييد المزيد من فئات المجتمع . بحكم الترويض والتأقلم مع الواقع نجد أن المواطنين يساهمون عن وعي أو غير وعي في تقبل التسويات التي كانت موضع شك في بادئ الأمر ومن ثم التحول إلى السياسة القائمة على السيادة .

إن هذه السيادة هي عبارة عن شبكة متداخلة من التسويات المقبولة من الجميع بصورة عامة ، وتقوم السياسة على توسيع آفاق هذا النسيج المتشابك من خلال طرح مسائل جديدة مختلف عليها وفرض حلول بها بواسطة القوة ، لكن الهدف يجب أن يبقى دوماً هو السعي إلى تحويل القوة إلى سيادة .

## هاكلبيري فين

لقد بين لنا بطل الحرية الشاب هاكلبيري فين للكاتب مارك توين كيف يستطيع المرء أن يتغلب على الحيرة والإرباك والانتقال إلى الشجاعة الأدبية حتى وإن كان يفتقر إلى الثقافة السياسية . يكفي أن يؤمن المرء بالحرية وحق

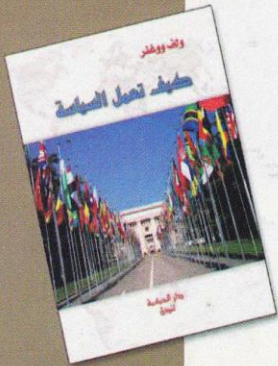
تقرير المصير والإنسانية وأن يؤمن أن هذه القيم لا يجب أن تكون عرضة للخطر أو موضع تهديد من أهداف أخرى .

استناداً إلى هذه القاعدة أو هذا المبدأ يمكن العثور على وسائل متعددة لتفعيل الالتزام بمفاهيم المجتمع المدني ، وذلك من خلال مبادرات المواطنين والسياسات البلدية وأهمها من خلال الانخراط والعمل بفعالية في إطار حزب سياسي .

### الديموقراطية المتواضعة

السياسة كما هي في جمهورية ألمانيا الاتحادية ربما ليست هي السياسة الأمثل لكنها سياسة فاعلة . وهي فاعلة بصورة أفضل من جميع المحاولات التي جرت عبر التاريخ بحثاً عن سياسة مثالية . السياسة كما هي في جمهورية ألمانيا الاتحادية ربما تكون غير عقلانية في جميع الأحوال لكنها سياسة فاعلة . بل أكثر من ذلك فهو تشكل الحلّ العملي الوحيد للمسائل الهامة الذي يتناسب مع واقع المواطن وآماله وقدراته وطموحاته ، وبالتالي إلى اتخاذ قرارات قد لا تكون هي الأمثل في بعض الأحيان لكنه يبقى الحل العملي الوحيد الذي يتيح انتقال السلطة دون سفك الدماء . الديموقراطية كما هي في جمهورية ألمانيا الاتحادية ربما هي ليست أفضل مثال لأنظمة الحكم ، لكنها ديموقراطية فاعلة وهي أثبتت عبر تاريخ البشرية أنها ثاني أفضل أشكال الحكم ، بل إنها النمط الوحيد العملي والقابل للتطبيق الذي برهن أن باستطاعته أن يكون شاملاً لكلا الأمرين وهما الحرية والفاعلية .





مدخل إلى معرفة الأسس والإمكانيات التي تقوم عليها السياسات بأسلوب موجز، واضح ومشوق.

ما هي أفضل أشكال المجتمع؟

ما هو دور الحرية والعدالة؟

أين هي حدود الحرية الفردية؟

ما هو الفرق بين السلطة والسيادة؟

أين يكمن فن الحكم؟

ما هي السياسة الرمزية وما هي السياسة العملية؟

استناداً إلى هذه التساؤلات وغيرها يوضح لنا فولف فاغنر الأسس التي يقوم عليها الفكر السياسي وما ينتج عنه من مواقف وتصرفات شارحاً طريقة عمل الأنظمة الديمقراطية وذلك عن طريق أمثلة جليّة واضحة يحنثنا في ذلك إلى المشاركة الفاعلة في الحياة السياسية.



**DAR ALHIKMA**

*Publishing and Distribution*

88 Chalton Street

London NW1 1HJ

Tel: 44 (0) 20 7383 4037

Fax: 44 (0) 20 7383 0116

Email: al\_hikma\_uk@yahoo.co.uk

Web site: www.hikma.co.uk

**ISBN**

1 904923 59 3